الباب الثانى

استقراء موجبات النقد

- أولاً : المبحث اللفظى.
- ثانيًا: المبحث التاريخى.

موجبات نقد هذا التفسير المشهور

عند الإمعان في الآيات الست الأولى من سورة الروم، وتصفُّح ما سطرته السيرة النبوية عن أحداث هذه الفترة، ثم الانعطاف للعودة إلى هذا التفسير الشائع، سنجد أنفسنا أمام عوائق تحول دون قبوله، بل وتوجب نقده.

وموجبات النقد ـ كما يرى البحث ـ تنتظم في فئتين، الأولى: لفظية، والثانية: تاريخية.

أولا: المبحث اللفظي

● **ما يريد المبحث اللفظي ان يقوله:**

ـ إن هناك مفارقة في التعبير القرآني عما بين الفرس والروم بالغلبة، وعمّا يخص المؤمنين بالنصر.

ـ إن النصر ليس مُرادِفًا للغلبة أو الفتح، وإثبات ذلك بتتبع الشواهد القرآنية.

ـ إن النصر ليس عاقبة، وإنما هو العَوْن المؤدي إلى عاقبة أو غاية (الغلبة أو النجاة أو الظفر أو...)

ـ العلاقة بين النصر والغلبة علاقة سببية؛ أي: علاقة السبب بالنتيجة.
فالنصر: هو المعونة المؤدية إلى الغلبة (العاقبة أو النتيجة).

ـ إن الفتح هو التذليل بعد امتناع. وعلاقته بالنصر علاقة تكاملية؛ فالفتح هو تذليل الشيء الممتنع للمنصور، وأما النصر فهو إعانة المنصور على إتيان هذا الشيء.

ـ إن الخلط بين النصر وبين كلٍّ من الغلبة والفتح مردّه إلى ذيوع الاستخدام المجازي.

ـ إن نصر اللّه ليس عطاء الربوبية؛ يجوز لأي إنسان، وإنما هو مشروط بنُصرة دين الله، فلا يناله إلا من استوفى شروطه، بخلاف دفع اللّه الناس بعضهم ببعض.

ـ ما كان بين الفرس والروم يندرج تحت دفع اللَّه بعضهما ببعض، وليس نصره لأحدهما على الآخر.

❑ موجبات النقد اللفظية وما يترتب عليها من علامات استفهام حول ألفاظ الآيات:

إن أول ما يسترعي الانتباه في هذه الآيات: تعبير القرآن عما بين الفرس والروم بالغلبة، وعما يخص المسلمين، أو ما سيفرح به المؤمنون بالنصر. فما اللطف الحكيم الكامن وراء هذه المفارقة؟ ولاستجلائه، لا بد من معرفة المعنى اللغوي الدقيق لكل من المادتين.

ذكر ابن فارس في فصل (الغين واللام وما يثلثهما): « (غلب): الغين واللام والباء أصل صحيح يدل على قوة وقهر وشدة. ومن ذلك: غَلَب الرجلُ غَلْبًا وغَلَبًا وغَلَبَةً... والمُغلَّب ـ أيضًا: الذي غلب خِصْمَه أو قِرْنَه، كأنه غُلِّب على خِصْمه أي: جُعِلت له الغَلَبَة»[٣١]. أهـ.

وقد وردت مادة «غلب» في القرآن الكريم ـ كلها مؤكدة لهذا المعنى اللغوي إحدى وثلاثين مرة. منها ثلاث مرات في أول سورة الروم، وهي موضوع البحث. والثلاثة (غُلِبَت، غَلَبِهِم، سيَغْلِبُون) في موضعها هنا ليس فيها ما يثير علامة استفهام، فالمعنى ظاهر لا يحتاج إلى مزيد بيان. وإنما ما سيستوقف البحث كثيرًا، والحق أنه مدار البحث كله، ولأجله سطرت هذه السطور هو: «نصر الله» الذي سيفرح به المؤمنون. ولكن أولا: ما المعنى اللغوي لـ«نصر»؟

جاء في مقاييس اللغة لابن فارس: فصل (النون والصاد وما يثلثهما): «مادة «نصر» أصل صحيح يدل على إتيان خير أو إيتائه، ونصر اللَّه المسلمين: آتاهم الظفر على عدوهم، وانتصر: انتقم... وأما الإتيان: فالعرب تقول: نصرت بكذا كذا، إذا

---

(٣١) ابن فارس، مقاييس اللغة (م٤/ ص٣٨٨ـ ٣٨٩).

أَتَيْتُه... ولذلك يُسمَّى المطر نَصْرًا. ونُصِرَتِ الأرضُ فهيَ منصورةٌ. والنَّصر: العطاء»[٣٢] أهـ.

وفي المُحْكَم لابن سِيدَه: «النصر: إعانة المظلوم... والنُّصْرَة: حُسْن المَعُونة... والانتصار: الانتقام»[٣٣].

وأما في القاموس المحيط: «نَصَر المظلوم أعانه، ونَصَر الغيثُ الأرضَ: عمَّها بالجُود. ونَصَرَه مِنْه: نَجَّاه وخلَّصه. والاستنصار: استمداد النَّصر وسؤاله. والتنصُّر: معالجة النَّصر».[٣٤]

ويُستخلص مما سبق أنَّ المعنى المُعجمي لـ«نصر» إنما يشير إلى سبب يؤدي إلى نتيجة أو عاقبة، وليس النتيجة ذاتها. فالنصر ليس هو الظفر أو الغَلَبة. ومع ذلك تربطه بهما علاقة، وإن كان البحث سيركز على علاقة النصر بالفتح وعلاقته بالغلبة؛ لأنهما داخلان في صلب البحث. وسيحاول البحث على مدار الصفحات المقبلة استجلاء حقيقة هذه العلاقة في القرآن والمعاجم، وسبر غورها.

وللتثبت من هذا الاستخلاص، لا بد من تتبع موارد مادة «نصر» في القرآن الكريم. فقد وردت بتصريفاتها المختلفة (١٤٣) مرة في القرآن الكريم، باستثناء «نصرانيًّا والنصارى». منها ثلاثة مواضع فاصلة، جاءت فيها معطوفا عليها بما يقتضي مغايرتها للمعطوف. أولها: قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾﴾ [الصافات: ١١٦]. وبديهي أن النصر هنا لا يطابق في معناه الغلبة، وإلا فذكرهما معًا في جملة واحدة لغو ـ تنزه كلام اللَّه ـ تَعَالَى ـ عن ذلك، ولكن لا بد وأن يكون بينهما معنى مشترك؛ لأنه من المقرر في علم النحو «أن الفاء العاطفة تفيد الترتيب بنوعيه، المعنوي والذكري، مع التعقيب بين المتعاطفين وإفادة التشريك. والمراد بالترتيب المعنوي:

---

(٣٢) ابن فارس، مرجع سابق، (م٥/ ص٤٣٥ـ ٤٣٦).

(٣٣) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، باب الصاد: فصل (ص ر ن) مقلوبة (ن ص ر)، (م٨/ ص٢٩٩ـ ٢٣٠).

(٣٤) الفيروزآبادي، القاموس المحيط، باب الراء، فصل النون، (م١/ ص٦٧٠).

أن يكون زمن تحقق المعنى في المعطوف متأخرًا عن زمن تحققه في المعطوف عليه... والمراد بالترتيب الذكري: أن يكون وقوع المعطوف في الكلام بعد المعطوف عليه بحسب التحدث عنهما... والمراد بالتعقيب: عدم المهلة، ويتحقق بقصر المدة الزمنية التي تنقضي بين وقوع المعنى على المعطوف عليه ووقوعه على المعطوف... وتفيد كثيرًا مع الترتيب والتعقيب التسبُّب؛ أي: الدلالة على السببية، بأن يكون المعطوف مُتَسبِّبًا عن المعطوف عليه، ويغلب هذا في شيئين: عطف الجمل و...» أهـ[٣٥].

والترتيب هنا، ترتيب معنوي سببي، وسيتأيد هذا بسائر موارد اللفظ في القرآن، فبعضها يشد بعضًا[*]. وبذلك، فإن المعنى هنا يكون: أن نصر اللَّه «عونه» لموسى وهارون ـ عليهما السلام ـ ومعهما بنو إسرائيل كان سببًا في غلبتهم، وبطريقة عكسية: أن غلبتهم كانت نتيجة حتمية لنصر اللَّه (عونه) لهم.

ثانيها وثالثها: قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ [الصف: ١٣]. وقوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾ [النصر: ١].

فالفتح لا بد وأن يكون مغايرًا للنصر، وإلا ما عطف عليه في كلام اللَّه المعجز. وتقديم النصر على الفتح في الآيتين، لا بد وأن يكون ذا دلالة، برغم أن الواو العاطفة «لا هي تفيد الدلالة على الترتيب الزمني بين المتعاطفين، ولا هي تفيد المصاحبة، وإنما تتجرد للاشتراك في المعنى العام، حيث لا توجد قرينة تدل على غيره»[٣٦] أهـ بتصرف. وسيأتي عما قليل معالجة العلاقة بين (النصر) و(الفتح).

❑ شواهد متفرقة

ـ قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٢]. وقوله ـ تَعَالَى ـ فيما كان بين يهود المدينة

(٣٥) عباس حسن، النحو الوافي (ج٣، ص٥٧٣. ٥٧٤).

(*) ومما يؤيد ذلك، نحويًا: أن العطف هنا، عطف جمل، وهذا ما يغلب عليه الدلالة على السببية.

(٣٦) عباس حسن، مرجع سابق، ج٣، ص٥٥٨).

ومنافقيها: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الحشر: ١٢].

وكما هو جلي في الآيتين، فإن المقصود بالنصر هو المعونة ـ وهذا يتسق مع معناها المعجمي. ففي الأولى: هناك تكليف بنصر المؤمنين الذين لم يهاجروا، والتكليف لا يكون بالنتيجة أو العاقبة وإنما يكون بالسبب أو الوسيلة. وأما الثانية فالشاهد فيها: ﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ﴾ فإن كان النصر هو العاقبة، فما الداعي لتولية الأدبار؟!

ـ وكذلك قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأنفال: ٢٦] وقوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ١٣].

ومن ذلك ـ أيضًا ـ قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾ مرورًا بقوله ـ تَعَالَى ـ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾ إلى قوله ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الأنفال: ٦٢-٦٥] فمعنى أيده اللَّه في الآيات الثلاث السابقة: قواه الله؛ لأن «(أيد) الهمزة والياء والدال أصل واحد، ويدل على القوة والحفظ»[٣٧] ـ كما جاء في مقاييس اللغة.

وعلى هذا يكون المعنى في الآية الأولى ـ واللَّه أعلم ـ أن اللَّه قواكم بعونه المباشر لكم، فغير حالكم من الضعف إلى القوة. والآية الثانية تحكي لنا كيف قوى اللَّه المؤمنين يوم بدر على قلتهم، فكان عونه لهم بأن جعلهم والكافرين يرون عدد الجيشين على غير حقيقته رأي العين. وأما الآية الثالثة، ففيها أن اللَّه قد قوّي نبيه محمدًا ﷺ بعونه المباشر بلا سبب بشري وبالمؤمنين الصادقين ـ وهم من تميز بهم ﷺ عن بقية الأنبياء. ثم جاء ذكر القتال وتحريض المؤمنين عليه وطمأنتهم بأن عاقبته ستكون لهم،

(٣٧) ابن فارس، مقاييس اللغة، باب الهمزة والياء وما يثلثهما (٢م١، ص١٦٣).

وأنهم سيغلبون، وإن فاق عدد عدوهم عددهم بعشرة أضعاف، بينما جاء الحديث عن النصر حديثًا عن المقدمات التي لا بد منها لتتحقق هذه الغلبة(*).

❑ .. ومعجميًّا...

وهنا يبرز سؤال: ما علاقة «نصر» بـ«فتح» و«غلب»؟

وهذا بدوره يقودنا إلى مناقشة مسألة الترادف.

من المعروف ما دار حول هذه المسألة من خلاف بين علماء اللغة. فبعضهم مثبت وبعضهم منكر. فأما المثبتون فيرون أنه: «لو كان لكل لفظة معنى غير معنى الأخرى لما أمكن أن يعبر عن شيء بغير عبارته»(٣٨). وأما المنكرون فيرون: «أن التعبير بالشيء عن الشيء، إنما هو من طريق المشاكلة، فلسنا نقول إن اللفظتين مختلفتان، فيلزمنا ما قالوه (أي ما احتج به المثبتون للترادف على المنكرين له، وهو ما سبق ذكره) ـ وإنما نقول: إن في كل واحدة منهما معنى ليس في الأخرى»(٣٨). أهـ ابن فارس بتصرف.

ولأن البحث ليس لغويًّا بالأساس، فلن ينساق إلى معالجة هذه المسألة معالجة عامة، وإنما سيعالجها معالجة موضعية أي بالاقتصار على الألفاظ الداخلة في نطاق اهتمامه والمؤثرة في مساره.

وفي إثباته للترادف عرَّفه الإمام فخر الدين بأنه: «الألفاظ المفردة الدالة على شيء واحد باعتبار واحد. قال: واحترزنا بالإفراد عن الاسم والحد فليسا مترادفين، وبوحدة الاعتبار عن المتباينين، كالسيف والصارم فإنهما دلا على شيء واحد، لكن باعتبارين: أحدهما على الذات، والآخر على الصفة...»(٣٩).

(*) على هذا تكون «انتصر» تعني «نصر نفسه»، لأنها على وزن «افتعل»، وهي صيغة تدل على اتخاذ الشيء للذات، وحينما يكون الفاعل مخلوقًا تدل فوق هذا على بذل الجهد والطاقة لبلوغ الغاية. وإذا كان الفاعل هو اللّه تعالى فتدل على التمكين لدينه بفعله مباشرة لا بأيدي المؤمنين.

(٣٨) ابن فارس، الصاحبي، باب الأسماء كيف تقع على المسميات، ص (٥٩ـ ٦٠).

(٣٩) جلال الدين السيوطي، المزهر في علوم اللغة، النوع السابع والعشرون معروف الترادف، (ج١، ص٤٠٢).

ومن التعريف السابق يتضح أن الاسم والحد ليسا مترادفين. والحد المقصود هنا والذي تحويه المعاجم العامة (أي غير المتخصصة) هو الحد اللفظي، وفائدته: «معرفة كون اللفظ بإزاء معنى»[٤٠]، أي: أنه يعرِّف معنى اللفظ. وإذن فمهمة البحث هنا التحقق من كون علاقة هذه الألفاظ بعضها ببعض علاقة تعريف، أم علاقة ترادف.

❑ كيف؟

- «فتح» و«نصر»: ورد في المحكم لابن سيده ضمن المعاني المعجمية لـ«فتح»، «الفتح: النصر» وفي مقاييس اللغة: «الفتح: النصر والإظفار»[٤١].

- «ظفر» و«غلب»: جاء في مقاييس اللغة: ظفر: «أصلان صحيحان يدل أحدهما على القهر والفوز والغلبة»[٤٢].

والسؤال الآن: هل يمكن أن نستنتج مما سبق، أن هناك علاقة دائرية بين «نصر» و«فتح» و«ظفر» و«غلب» وأنها جميعًا مرادفات، تدل على شيء واحد باعتبار واحد، دون زيادة أو نقصان في المعنى؟

- لو كان ما طرحه التساؤل السابق صحيحًا، لوجب أن تكون هذه العلاقة متبادلة ومتساوية بين كل لفظين من الألفاظ السابقة، وهو ما لا نجده في المعاجم. فقد رأينا فيما سبق أن المعاجم لم تورد النصر ضمن معاني مادة «غلب»، ولا الغلبة ضمن معاني «نصر». وكذلك فإن المعاجم التي ذكرت «النصر» ضمن معاني «الفتح»، لم تذكر «الفتح» كمعنى لمادة «ن ص ر». ولم يُذكر «الظفر» ضمن معاني مادة «غلب» لا في مقاييس اللغة، ولا في غيره من المعاجم[*].

---

(٤٠) التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون، باب الحاء المهملة، فصل الدال المهملة (الحد)، (م١/ ص٣٩٠).

(٤١) ابن فارس، مقاييس اللغة، كتاب الفاء، (م٤، ص٤٦٩)، والقاموس للفيروزآبادي، (م١، ص٣٥٠)، والمحكم لابن سِيدَه، (م٣/ ص٢٧٦).

(٤٢) ابن فارس، مقاييس اللغة، باب الظاء، كتاب الظاء والفاء وما يثلثهما (م٣/ ص٤٦٥).

(*) المعاجم التي غطاها البحث: مقاييس اللغة، القاموس المحيط، مختار الصحاح للرازي، أساس البلاغة للزمخشري، المُحكم لابن سِيدَه، والمعجم الوسيط.

والسبب في ذلك يمكن فهمه من خلال استيضاح الكيفية التي تعاطت بها المعاجمُ الألفاظَ السابقة. فالمعاجم لم تعبر عن اللفظة المفردة بلفظة مفردة، وإنما عملت على تتبع معاني مفردات المادة اللغوية في أوضاعها الاشتقاقية والتصريفية المختلفة. وفي أحوال لزومها وتعدِّيها، وفي تعلقها بحروف التعدية (حروف الجر)، وكذلك بتتبع معانيها في استخداماتها اللغوية الشائعة.

وأما ابن فارس في معجمه مقاييس اللغة، فيعمل على «توضيح المعنى أو المعاني المشتركة بين مفردات كل مادة لغوية»[٤٣]، وبالتالي لا يمكن اعتبار ما يورده تحت أي مادة على أنه مرادف لها. فمنهجه توضيح الأصول المعنوية الجامعة التي تنتظم وتربط بين معاني مفردات هذه المادة والتي قد تبدو متباينة ومتباعدة، إلا أنها قابلة للقياس على هذا الأصل المعنوي. فموضوع هذا المعجم الاشتقاق الكبير أو المقاييس، وليس الترادف.

ومما سبق نستطيع أن نستنتج ـ مطمئنين ـ أن ما ورد في المعاجم في شأن «نصر» و«فتح» و«غلب» هو تعريف بمعانيها على سبيل المشاكلة، إذا نظر لكل منها باعتبار معين.

ولكن ما وجه المشاكلة بين «نصر» و«فتح»؟

وجه المشاكلة بين اللفظين «نصر» و«فتح»، هو ذاته ما يوضح لنا الفرق بينهما، وهو ما تستعمل عليه الكلمتان من حيث التعدي. فـ«نصر» تُعدّى لمفعول واحد بلا حرف جر(*) قال ـ تَعَالَى ـ: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ [التوبة: ٤٠] ونَصَر الأرضَ المطرُ عمّها بالجود. وأما «فتح» إذا كان المفعول به غير عاقل، عُدِّي إليه بدون حرف جر، وأما إن كان عاقلا، عُدِّي إليه بحرف جر، قال ـ تَعَالَى ـ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأعراف: ٤٠] وقال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [المؤمنون: ٧٧] وقال ﷻ ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ﴾ [يوسف: ٦٥]. وأيضًا قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾﴾ [القمر: ١١].

(٤٣) ابن فارس، مقاييس اللغة، مقدمة المحقق عبدالسلام هارون (ج١، ص٣٩).

(*) اقتصر البحث هنا على حالات التعدي التي تدخل في نطاق اهتمامه.

وقوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ [الفتح: ١]. وهذه الآية الأخيرة هي التي ستعيننا على فهم معنى الفتح في قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ [الصف:١٣] وقوله ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١﴾ [النصر: ١]. ومعلوم أن الفتح ضد الإغلاق(*)، «وفتح المغلق ـ كما جاء في المعجم الوسيط ـ أزال إغلاقه، وفتح الله قلبه للأمر: شرحه له، وفتح الطريق: هيأه وأذن بالمرور فيه..، وفتح البلد: غلب عليه وتملكه»(٤٤) أهـ بتصرف.

وإذا ما اتفق لنا كل هذا بالإضافة إلى ما سبق ذكره في شأن «نصر»، نستطيع أن نقترب من صورة ذهنية لوجه المشاكلة بين اللفظين. فإن كان هناك شخص يباشر أو يعالج أمرًا أو شيئًا ما، فيكون النصر بإعانته على إتيان هذا الأمر، ويكون الفتح بتهيئة هذا الأمر وتذليله بعد أن كان ممتنعًا، ولذلك قال ـ تَعَالَى ـ: ﴿نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ بينما قال فيما يتعلق بالفتح ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ﴾.

ومرة ثالثة ورابعة، ...، هذا لا يدل على ترادف اللفظين، وإنما هو أشبه بدائرتين تماستا في نقطة واحدة. وتكون هذه النقطة إذا صح التعبير: التمكن من الشيء ويتحقق بأمرين: التمكين منه (نصر)، وتمكين الشيء للمُمَكَّن (فتح). ومصداق ذلك قوله ـ تَعَالَى ـ ردًا على مشركي مكة: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [القصص: ٥٧]. ومعلوم أن قريشًا لم يكن لها من القوة ما تدفع به عن مكة أو تجبى به من غيرها رزقًا. وهذا هو وجه المشاكلة بين «مكن لـ» و«فتح لـ». فكلاهما يتجه إلى تذليل الشيء وتهيئته دون حيلة من المُمكَّن له إلا أن «فتح» تختص بأول التمكين بعد الامتناع عن المفتوح له. وبهذا يكون البحث قد اقترب أكثر من الصورة الذهنية لمعنى الفتح المذكور في القرآن في موارد يلتبس فيها معناه بمعنى النصر في المعاجم والتفاسير. ويكون قد اقترب من وجه المشاكلة بين «النصر» و«الفتح» والذي دفع المعاجم إلى ذكر الأول كمعنى من معاني الثاني. وهذه المشاكلة كما

(*) اعتمدت أغلب المعاجم التي رجع إليها البحث على وضوح وذيوع معنى «فتح»، فانطلقت من تعريفها بضدها، ثم تعقبت استخداماتها المختلفة.

(٤٤) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، (ج٢، ص١٦٩٦).

كانت نقطة التقاء بين اللفظين، كانت ـ أيضًا ـ نقطة افتراق بينهما.

❑ والمقصود من كل ما سبق

(١) أن العلاقة بين «نصر» وبين «غلب» علاقة سببية، بمعنى أن النصر هو العون المؤدي إلى الغلبة. وأما العلاقة بين «نصر» وبين «فتح»: فهي علاقه تكاملية.

(٢) أن الخلط بين النصر والغلبة، أو التجوز بأحد اللفظين عن الآخر، لا شاهد له من القرآن الكريم، ولن نجده فيما صح من كلام رسول الله ﷺ وليس هنا مقام استقصائه ـ وإنما شاع هذا الخلط في الأفهام سواءٌ عند العامة أو العلماء(*). وهذا التجوّز باللفظ عن المعنى الأصلي الذي وضع له إلى معنى آخر لعلاقة بين المعنيين له أمثلة كثيرة. منها لفظ «التيمُّم» فهو في القرآن يعني القصد: ﴿فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [النساء: ٤٣، المائدة: ٦]، فالمعنى هنا قصد الصعيد الطيب (الطاهر) أو التوجه إليه، وأما في اصطلاح الفقهاء، فقد تم التجوّز به ليشمل بالإضافة إلى قصد الصعيد الطيب المسح بالوجه واليدين، وهذا ما نبه عليه ابن تيمية. والعلاقة بين المعنى الحقيقي والمعنى الاصطلاحي المجازي، علاقة الجزء بالكل؛ حيث أطلق لفظ عمل واحد من ضمن أعمال كُلف بها المسلم في حالة عدم توافر ماء طاهر للوضوء على جميع تلك الأعمال ككل واحد.

وهذا ما حدث بين النصر والغلبة، حيث تجوز بلفظ السبب عن المسبَّب. وبين النصر والفتح، لما بينهما من تكامل يقتضي الملازمة، وليس التلازم(**) فالنصر يسبق الفتح في التحقق؛ لأنه يعالج المكلفين (المؤمنين) الذي عليهم أن يُثبتوا ـ أولا ـ استحقاقهم له حتى يُنصروا ـ على ما سيأتي بيانه في الصفحات التالية ـ ثم يأتي الفتح

(*) وربما يزداد الأمر اشتباها بين نصر وغلّب (أي في حال تعديته بالتضعيف)، حيث يكون وجه المشاكلة هو إيتاء القدرة والتمكين من تحقيق الغلبة على المغالب.

(**) وهذا ما يفسر لنا تقدم النصر على الفتح عند تعاطفهما في قوله ـ تَعَالَى ـ ﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ وقوله ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾ إذن لا نستطيع أن نقول إن العلاقة بينهما هي التلازم بما يقتضيه هذا من التزامن التام. وإنما الصحيح أن تقول إن العلاقة بينهما الملازمة أي ملازمة الفتح للنصر.

متممًا ومكملًا. وكي لا يكون الوعد بالفتح وحده مدعاة للتواكل والتخاذل، فيظن البعض ـ كما ظن بنو إسرائيل ـ أن اللَّه قد يفتح للمسلمين دون جهدٍ وعملٍ منهم، **لابد وأن يأتي الفتح ملازمًا للنصر، ولا يتسنّى ذلك إلا إذا تحقق الملزوم (النصر) أولًا، ثم يلحق به المُلازِم (الفتح).**

بات من المؤكد ـ بعد كل ما سبق ـ أن اقتصار القرآن على لفظة «غلب» بتصريفاتها للتعبير عما بين الروم والفرس ـ حتى وإن لم يصرح بذكر الفرس ـ وتعبيره عما سيفرح به المؤمنون بالنصر، وفوق ذلك إضافته إلى الله، لطف له دلالة، فالمفارقة في المعنى تطوي بداخلها مفارقة في القصد ونظم الكلام يؤيد ذلك. فكيف هذا؟

وأول تساؤل يطرح نفسه هنا: **لماذا أضيف النصر لله؟** هناك إجابتان محتملتان، فإما أن يكون هذا دلالة على قضية الإيمان بأن الخير والشر من اللَّه على غرار قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨]. وإما أن يكون دلالة على عطاء ومنّة إلهية يختص بها اللَّه من يشاء من عباده.

وأما الاحتمال الأول، فلا يصح إلا إذا كان نصر اللَّه من عطاء الربوبية يستوي فيه الكافر والمؤمن، كالرزق في الدنيا يكون فتنةً وابتلاءً، بل وإمهالًا واستدراجًا. وهذا ما لا ينطبق على نصر اللَّه؛ لأن نصر اللَّه مشروط بنُصرة دينه، قال ـ تَعَالَى ـ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧﴾ [محمد: ٧] إذًا فنصر اللَّه مشروط حتى للمؤمنين، فإن خالفوا الشروط وحادوا عن المنهج القويم، خذلهم الله، ومالهم من ناصر ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ۝١١٣﴾ [هود: ١١٣] بل وهناك ما هو أكثر. فعلى الرغم من وعد اللَّه لرسله بالنصر ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ۝١٧١ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ۝١٧٢ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ۝١٧٣﴾ [الصافات: ١٧١ـ ١٧٣]، فقد ساق لنا القرآن فرضًا جدليًا، بأنه في حال حيد رسول اللَّه عما كلفه اللَّه به فسينزع عنه الوعد بالنصر، وحينذاك لن تنفعه نُصرة أحد من دون اللَّه بل وستُضاعف له العقوبة في الحياة

وفي الممات. ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [الإسراء: ٧٤- ٧٥]، وبهذا يفهم قوله - تَعَالَى - ﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُ﴾ [الروم: ٥] على أن نصر اللَّه ليس حِكرا على أفراد أو فئة بذاتها، على أي حالٍ كانوا، وإنما هو لمن أدّى حقه وطبق شروطه. ومثل ذلك قوله - تَعَالَى -: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ﴾ [آل عمران: ١٣] وكان ذلك - كما سبق ذكره - يوم بدر.

❑ والقاعدة المستخلصة من كل ما سبق

أن النصر الحق الذي يؤدي بالمنصور إلى بلوغ المراد بلا ريب هو نصر اللَّه ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ١٠]، ولهذا النصر شروط لا بد وأن تُسْتَوْفَى، وإلا الخذل ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ﴾ [آل عمران: ١٦٠]، وحينها يخرج المؤمنون من دائرة «نصر الله» لتسعهم دائرة «دفع الله» كما تسع غيرهم من الناس. ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]. وفي هذه الآية يتجلى الفارق الشاسع بين نصر اللَّه واقتصاره على من نصر دينه، وبين دفع اللَّه الذي يشمل الناس جميعًا، والذي قد تكون فيه الكَرّة للمشرك أو للمجوسي أو للكتابي أو للمسلم أو عليه، فيداول الأيام بين الناس لتحقيق حكمته العليّة. وبهذا يفهم قوله - تَعَالَى - في الآيات موضوع البحث ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ﴾ [الروم: ٤].

هكذا قد حسمت الإجابة عن التساؤل الذي بدأت به هذه الفقرة وهو «لماذا أضيف النصر لله؟» وفي طياتها حملت إجابة منفية لسؤال آخر: «نصر اللَّه لمن؟» حيث أثبتت السطور السابقة أن نصر اللَّه مشروط بنصرة دينه. هذه قاعدة عامة، لو طبقت على الآيات الست الأولى من سورة الروم، أيمكن أن نتقبل أن نصر اللَّه كان للروم، ومحمد بن عبداللَّه خاتم النبيين والمرسلين، صاحب الشريعة الخاتمة الناسخة لما

قبلها قد بُعث، والذي إن حضره موسى وعيسى ـ عليهما السلام ـ ما وسعهما إلا اتباعه؟ أو يمكن أن يكون ذلك كذلك، وقد بسط لنا القرآن في أكثر من موضع منه، كيف اختلف النصارى في حقيقة عيسى عليه السلام وذهبوا في ذلك مذاهب عدة مدارها كلها على تأليهه!!

ليس هذا وحسب، بل إننا إن سايرنا هذا التفسير الشائع فلا بد وأن نفهم أن ابتداء السورة بذكر الروم، بل وتسميتها بقوميتهم ـ لا بديانتهم ـ هو من باب الاحتفاء بهم!!

هذا على الرغم من أن هذه الأمة ستقف من الإسلام ونبيه وأتباعه موقف العدو اللدود، وكان بدء ذلك من أول يوم آذنتهم فيه نفحات الإسلام ـ بغض النظر عن الرأي الشخصي لهرقل والذي لم يكن له تأثير في مجريات الأحداث ـ وظل هذا العداء مستمرًا ومتجددًا بكيفيات تختلف من قرن إلى قرن. فليس الحال هنا كحال قوم سبأ ـ إن جازت مقارنتهم بالروم ـ فالأخيرين لم تعاصر دولتهم وحضارتهم انبلاج نور الإسلام فهي من القرون الغابرة. وعلى الرغم من وثنيتهم ـ حيث كانوا يعبدون الشمس ـ فقد سميت سورة باسمهم، للاتعاظ لا للاحتفاء. فلماذا أضمر القرآن ذكر الفرس وصرح بالروم؟

والأهم من هذا لمن كان نصر الله؟ أكان لمحمد رسول الله والذين معه؟! وكيف كان هذا؟ وهذا ما سيحاول البحث تلمس الإجابة عنه من خلال صفحات السيرة النبوية والتاريخ حتى يصل إلى فهم متكامل لأول سورة الروم.

ثانيًا: المبحث التاريخي

- **ما يريد المبحث التاريخي أن يقوله:**
- **المطلب التاريخي الأول: الفرس والروم جَارَان لِهد الإسلام، ولكن مع الفارق فالإمبراطورية الفارسية تحاصره، وليست تُجاوِرُه فقط!**

* الإسلام كقوة ناشئة يهدد الإمبراطورية الرومانية في نفوذها، بينما يهدد الإمبراطورية الفارسية في وجودها، وما يترتب على ذلك من اختلاف طبيعة خطر كلٍّ منهما على الإسلام.

* العلاقة بين الفرس والروم، تتراوح بين التهادن الهشّ والتحارب، والحرب بينهما سجال. فماذا حدث بينهما في الحلقة السجالية الأخيرة: كرّة الفرس على الروم وما تبعها من كرّة الروم على الفرس؟

* حينونة اللحظة التاريخية الحرجة، والتي تداول فيها الأيام بين الأمم، عندما وضعت الحرب أوزارها بين القوتين العُظميين.

- **المطلب التاريخي الثاني: ماذا يجري في جزيرة العرب تزامنًا مع الحلقة الأخيرة من السجال بين الروم والفرس؟**

* التهاء القوتين العظميين بعضهما ببعض عن انبلاج نور الدعوة الجديدة في جزيرة العرب، وما في ذلك من خيرٍ عظيم للإسلام.

* العام السادس الهجري: حمل في جعبته ثلاثة أحداث، تفاعلت بعضها مع بعض، كما أوضحت ذلك روايات صحيحة. فما تلك الأحداث؟

١- تمام غلبة الروم على الفرس. فباقتحام الجيوش البيزنطية «المدائن» وتخريبها، تمَّت الغلبة للروم بقهر الفرس، ووضعت الحرب أوزارها.

٢- الهُدنة بين دولة الإسلام وبين قريش؛ صُلح الحديبية.

ـ لم يكن المقصود من هدنة الحديبية إقرار الأوضاع القائمة، وإنما إرجاء ملف قريش إلى حين. وهذا ما لم يفهمه المسلمون في بادئ الأمر، ولذلك اغتموا لها.

ـ لماذا سُميت هُدنة الحديبية فتحًا مبينًا؟

التفسير المَوْضعي الذي يجيب عن هذا السؤال بما وقع في الغزوة ذاتها قاصر.

هناك تفسير يوفق بين الآراء المختلفة، يذهب إلى أن غزوة الحديبية سُميت فتحًا مبينًا لما ترتب عليها من تطورات. إلا أنه يحصرها في فتح مكة، متجاهلًا تطورات أخرى، لا تقل أهمية عن فتح مكة، وكانت هي الأخرى من ثمار صلح الحديبية. فما هي؟

ـ الخروج بالدعوة من نطاق الجزيرة العربية، والآية السادسة عشرة ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ [الفتح:١٦] الآية ـ إيذان ببدء هذه المرحلة.

٣ـ مُكاتبه رسول اللَّه ـ عليه الصلاة والسلام ـ للملوك والأمراء.

ـ استُهِلَّت بعد إبرام هدنة الحديبية بمكاتبة هِرَقْل.

ـ ردّ فِعل الإمبراطورية الرومانية ـ بغض النظر عن موقف هِرَقْل الشخصي ـ كان عدائيًا مُلبيًا لِنداء الملك والعصبية. وبالتالي بات احتمال الصراع مؤكدًا، ولكن من سيُبادِر قبل أن يُبادَر.

ـ وأما رد فعل الإمبراطورية الفارسية فكان أكثر عداءً وتشنجًا، لولا التطورات الداخلية الطاحنة التي أدخلتها في مرحلة الاحتضار.

ـ الموقف العملي لكل من الإمبراطوريتين حيال الدعوة الجديدة كان متأثرًا بما دار بينهما من صراع وما ترتب عليه. فكان أن دُفِعَت كلٌّ منهما إلى خندق الدفاع عن النفس. فالرومانية كانت تدافع عن نفوذها، وأما الفارسية فكانت تَدْفع عن وجودها. ولم تخترق إحداهما الجزيرة العربية بعمل عسكري هجومي شامل.

ـ أن مُبادأة الدولة الرسولية وإصرارها على مُحاربة الروم، دون أدنى تحرك على

الجبهة الفارسية جاءت محصلة لدراسة الموقف على الجبهتين، والتي خلُصَت إلى أن العَطب والتمزق قد طال سُدة الحُكم في الإمبراطورية الفارسية ودائرة صنع القرار فيها، بما يعني أنها خطرٌ تأجَّل إلى حين، بينما ظلت دائرة صنع القرار في الإمبراطورية الرومانية قادرة وفاعلة، فلو أُمهِلت حتى تتعافى، لبادرت بمهاجمة المسلمين، ولوجدوا أنفسهم في خندق الدفاع عن النفس. فكان على دولة الإسلام أن تَسْبِق قبل أن تُسبَق.

وأما التحليل الذاهب إلى أولوية أهل الكتاب بالمُحاربة، فإنه يتعارض مع ما يفهمه أنصاره من القرآن الكريم؛ من أن خصوصية أهل الكتاب، لا في استحقاق الدعوة ذاتها، وإنما في طريقة دعوتهم وذلك بمُجادلتهم بالحُسنى، وليس بقتالهم. فقد قاتل المسلمون الإمبراطورية الرومانية، وهي المعنية بقوله ـ تَعَالَى ـ ﴿قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾، وأما أهل الكتاب من رعاياها فلهم ـ كغيرهم ـ استحقاق المجادلة بالحُسنى.

* * *

❑ موجبات النقد التاريخية

إن أول ما يسترعي الانتباه في هذا المقام، هذه المسافة الشاسعة بين ذلك التفسير الشاسع وبين ما سطرته صفحات السيرة النبوية في هذا السياق. فحسب ذلك التفسير الشاسع - بأن المؤمنين فرحوا بغلبة الروم (أهل الكتاب) على الفرس (المجوس) لدرجة أن استحق الروم احتفاء القرآن بهم، لا لشيء إلا لفرحة المؤمنين - كان من المنطقي أن ينخرط الرسول ﷺ في محاربة الفرس، وبخاصة وأن رد كسرى كان مؤذنًا بالحرب، لولا التطورات الداخلية التي حالت بين كسرى وبين ما يريد، وهي التطورات ذاتها التي كانت تغري بمحاربة الفرس. إلا أن ما حدث كان العكس. فقد حارب الرسول ﷺ الروم، وبإصرار جهز لهم ثلاثة جيوش، مات قبل إنفاذ ثالثها، إلا أنه أُنفِذ بعد موته ﷺ بقيادة أسامة بن زيد - حسب وصيته. فكيف يمكن الجمع بين ذلك التفسير وتلك الأحداث، إلا أن يكون ما بين الفرس والروم لا علاقة ولا تأثير له على المسلمين إلا في حيز الوجدان والعاطفة!!

وحتى نقترب أكثر فأكثر من قسمات وانعطافات المشهد التاريخي لا بد من استيفاء مطلبين:

- **المطلب الأول: ما كان بين الفرس والروم من سجال، خاصة قبيل البعثة النبوية وبعدها، وتأثير ذلك في الدعوة الناشئة في قلب الجزيرة العربية.**
- **المطلب الثاني: الأحداث التي سجلتها السيرة النبوية تزامنًا مع المراحل الأخيرة من هذا الصراع، وبخاصة كرَّة الروم على الفرس، وما تلاها.**

المطلب التاريخي الأول

ماذا يجري على تخوم الجزيرة العربية بينما يبزغ فجر الإسلام فيها؟

❑ الفرس والروم والصراع الدائر بينهما ومآله

بُعِث محمد ﷺ بالرسالة السماوية الخاتمة في قلب الجزيرة العربية، في حين كان يتقاسم السيطرة على العالم قوتان عظميان فارس والروم. ولم يقتصر هذا التقابل على التزامن وحسب، بل وتحقق ـ أيضًا ـ في التجاور. فكلتا القوتين جارتان لمهد الرسالة الخاتمة. إلا أن هذا التجاور لم يكن بصورة واحدة، فبينما يمتد ذراع الإمبراطورية الرومانية الشرقية (البيزنطية) ليبسط نفوذها على بلاد الشام والقبائل العربية المتحالفة معها في شمال غربي الجزيرة العربية، ويقبع قلبها (القسطنطينية) خلف الجبال والبحار، تطبق الإمبراطورية الفارسية على صدر الجزيرة، وتقبض عليها كما القوس. ففي الشمال الشرقي تربض المدائن (طيسفون) عاصمة الساسانيين (على مقربة من الكوفة التي بناها المسلمون فيما بعد)، علاوة على ولاء القبائل العربية القاطنة لتخوم الجزيرة في هذه الناحية، وكذلك ناحية الشرق والمطلة على الخليج الفارسي، وفي الجنوب، وبما في ذلك الجنوب الغربي. فقد أصبحت اليمن خاضعة للفرس منذ عام ٥٧٥م حينما استعان بهم ملك الحميريين (سيف بن ذي يزن) لطرد الأحباش التابعين للدولة البيزنطية. وبذلك فإن الوضع بالنسبة للإمبراطورية الفارسية تعدّى الجوار إلى الحصار. بينما كانت الجزيرة العربية من الداخل ـ تمثل فراغًا سياسيًّا وعسكريًّا، ليس فيه ما يستلفت انتباه الإمبراطوريتين. وظلت كذلك بالنسبة لهما، حتى أيقظتهما رسل رسول الله ﷺ.

وبذلك، فإن الجغرافيا السياسية لهذه المنطقة في ذلك الوقت، تنبئ باختلاف طبيعة التهديد الذي سيمثله الإسلام ـ بوصفه قوة ناشئة ومتمددة ـ لكل من الإمبراطورية الفارسية والبيزنطية؛ فهو يهدد الأولى في وجودها ـ كإمبراطورية، وليس

كحضارة وشعب ـ ويهدد نفوذ الثانية. وفارق شاسع بين الوجود والنفوذ. وبذلك أيضًا ـ تُفهم طبيعة خطر كلٍّ منهما على الإسلام، ومن ثم تأثير ما دار بينهما من صراع عليه.

وعلى امتداد تاريخ الصراع بين الإمبراطوريتين، كانت الأيام سجالًا بينهما، وكانت تتقلب بين حروب شرسة ومدمرة، تأخذ في طريقها كتلًا بشرية، وقرى وبلدانا، وبين معاهدات سرعان ما تُنقض من أحد الطرفين. وما يعني البحث هنا هو ما كان بينهما قبيل البعثة وفي أثنائها، وتحديدًا في عهد كسرى «أبرويز»، وبخاصة أن في عهده تضخمت الإمبراطورية الفارسية بالهزيمة الساحقة التي ألحقتها بالروم، وفي عهده أيضًا انقلبت الأمور إلى نقيضها، بهزيمة الروم لها هزيمة قاضية. وهي الأحداث التي أوجزتها لنا سورة الروم في أولها.

ومن مفارقات التاريخ، أن «أبرويز» استعاد ملك أبيه هرمز ـ الذي استولى عليه أحد قواده ـ بمساعدة قيصر الروم «موريكش» بل وتعدى الأمر ذلك إلى تزويج الأخير (موريكش) ابنته «مريم» لـ«أبرويز». ولم يزل «أبرويز» على علاقة طيبة بـ«موريكش» إلى أن انتقضت الروم على الأخير وقتلوه، وملكوا غيره.

فلما بلغ ذلك «أبرويز» أثار حفيظته وغضبه لحليفه فآوى ابن الملك المقتول الذي لجأ إليه، وتَوَجَهُ ملكًا على الروم، ووجّه معه جندًا كثيفًا مع قائده «شهر براز» فدوَّخ جيشُه بلاد الروم. فسيطر على بيت المقدس عام ٦١٤م وأخذ خشبة الصليب وبعثها إلى كسرى. ثم أكمل المسير، فاستولى على الإسكندرية، ومصر، وبلاد النوبة. ثم تحرك كسرى في عسكر الفرس إلى القسطنطينية وحاصرها وضيق عليها وخرب بلاد الروم غضبًا للملك المقتول. ومع ذلك لم يخضع أحد من الروم لابن الملك المقتول، على الرغم من أنهم قتلوا الملك «فوقا» الذي ملكوه عليهم بعد موريكش لِمَا ظهر لهم من فجوره وسوء تدبيره، وملكوا رجلًا آخر يقال له «هرقل».

وعند هذه النقطة انعكس اتجاه الريح. فقد أعطى انقلاب كسرى «أبرويز» على قائديه الأخوين «شَهْر برَاز» و«فُرُخان» المسوغ لهما للتحالف مع «هرقل» على قتاله.

وعمل هرقل على إعداد جيوشه وتنظيمها لملاقاة جيوش «أبرويز» فتغلب عليهم وهزم الفرس في آسيا الصغرى سنة ٦٢٢م، ثم استعاد منهم سوريا ومصر سنة ٦٢٥م، ثم هزمهم هزيمة ساحقة سنة ٦٢٧م قرب أطلال نينوى، وخرب «المدائن» فكانت القاصمة للإمبراطورية الفارسية. فقد كشفت الهزيمة مفاسد حكم «أبرويز» وطغيانه، وأسقطت أي مسوغ للفرس كي يحتملوه، بعد أن زَجّ بهم في حرب لم يكن لها داعٍ، إلا إرضاء غروره. فقد عجَّت سجونه بعظماء الفرس وكبرائهم، وزاد تجبُّره في جباية الضرائب حتى تتضخم خزانته، ومن بعد ذلك لتغطية نفقات الحرب، مستخدمًا في ذلك أقسى الأساليب وأبشعها مع العامة. ووصل به التجبر إلى أن أمر بقتل كل المقيدين في سجونه - وهم حسب المؤرخين عشرات الآلاف - بمن فيهم أبناؤه. فأثار ذلك حفيظة أهل الدولة الذين لم يعد لديهم مزيد احتمال لأفعاله الخرقاء، فأطلقوا ابنه «شِيرَوَيْهِ» ونادوا به كسرى البلاد، ثم قتل الأخير أباه. ولم يستطع شِيرَويْه إنقاذ الإمبراطورية من الفوضى التي عصفت بها، ومات بعد أبيه ببضعة أشهر. وأخذت الأحوال في التردِّي أكثر وأكثر، ولم يستقر أمر المُلك لأحد ممن تولوه، حتى كان عهد «يَزْدَجُر» - آخر ملوك الأسرة الساسانية، وآخر ملوك الفرس بصورة عامة - حيث بلغت الإمبراطورية في عهده ما جرّأ عليها أعداؤها من كل جانب، حتى كان الفتح الإسلامي للمدائن عام ١٥ أو ١٦هـ.

وعلى الجانب البيزنطي لم تكن الأحوال أفضل كثيرا، وإن لم تكن بنفس درجة السوء التي كانت عليها الإمبراطورية الفارسية بعد أن وضعت الحرب بينهما أو زارها. فقد أثقلت نفقات الحرب كاهل الإمبراطورية، مما دفع هرقل إلى فرض ضرائب جديدة ومُضَاعَفَة؛ لتسديد ديون الحرب وفوائدها. مما أدّى إلى تأجيج الاضطرابات الداخلية، والتي كان السبب الرئيسي فيها الانقسامات والصراعات المذهبية، والتي لم تهدأ يومًا. فقد كانت قبل قسطنطين (٣٢٣ - ٣٣٧) تتمثل في انقسام الديانات الوثنية التي تظلها تلك الإمبراطورية الشاسعة، وكذلك اضطهاد الأباطرة الرومان للمسيحية وأتباعها، فلم يتسامحوا معها تسامحهم مع الوثنيات؛ لأنها - أي المسيحية - تنزع عنهم القداسة. وبعد قسطنطين، الذي كان أول إمبراطور مسيحي يعترف رسميًا بالمسيحية، اشتعلت الخلافات والانقسامات بين المسيحيين حول اختلاف

طبيعة الابن عن طبيعة الأب، أو كونها واحدة، ثم اختلاف وانقسام حول طبيعة المسيح. فهناك المذهب النسطوري أو الملكاني، الذي تتبناه الإمبراطورية وكنيستا روما والقسطنطينية. وهناك المعارضون، وهم اليعاقبة (نسبة إلى زعيمهم يعقوب) في سوريا ومصر وأرمينيا وهم الذين يؤمنون بأن للمسيح طبيعة إلهية واحدة، بينما يذهب النساطرة إلى أن للمسيح طبيعتين: بشرية وإلهية، وقد فشلت كل المحاولات لتحقيق الوحدة الدينية، سواء بعقد المجامع الكنسية، أو بالقوة. وكان آخر هذه المحاولات هي التي قام بها «هرقل»، حيث عقد مجمعًا دينيًا، انتهى إلى قرار عدم الخوض في طبيعة المسيح والاكتفاء بالقول بأن لله إرادة واحدة. لكن اليعاقبة قاوموا ولم يُذعنوا، فاضطهدهم بالتعذيب والتحريق، دون أن يصل إلى بُغيته(*).

ما سبق لم يكن تحليلا لأسباب ضعف الإمبراطوريتين، وإنما كان إطلالة سريعة على الأوضاع السائدة فيهما قبيل احتكاك الإسلام بهما. والحق أن الحروب الدامية بين الإمبراطوريتين، وبخاصة تلك الحلقة الأخيرة من هذه الصراعات والتي دامت - تقريبًا - عقدًا من الزمان، على نحوٍ متواصل، ولم تسمح لأيٍّ منهما بالتقاط أنفاسه، صرفت انتباههما عما يدور في قلب الجزيرة العربية، وبخاصة أنهما ألفوها صحراء جرداء لا يملؤها إلا قبائل تتناحر لأتفه الأسباب. ولما وضعت الحرب أوزارها، خرجت إحداهما مضعضعة والثانية منهكة. وحانت اللحظة التاريخية الحرجة، والتي تُداول فيها الأيام بين الأمم، فتُدَالُ أمة، وتَدُولُ أخرى. فمن أحسن قراءتها كانت له الدَّوْلة، إما بدفع اللَّه أمة بأمة، وإما بنصر اللَّه لمن أدّى شروطه وحقوقه. فكيف كان ذلك في تلك اللحظة من التاريخ؟!

وسيجيب البحث عن هذا السؤال من خلال استيفاء المطلب الثاني في المبحث التاريخي.

(*) ما ذكر هنا في الإطلالة التاريخية عما بين الفرس والروم من صراع، وما كان يعانيه كلٌ منهما، إنما هو صياغة موجزة ووامضة مؤلفة مما نثر وبسط في مراجع متعددة: تجارب الأمم لـ«مِسْكَوَيْه» (ج١: ص١٤٦- ١٦٨)، وتاريخ ابن خلدون (ج٢: ص١٧٣- ١٧٨، ص ٢١٥- ٢١٨)، والإمبراطورية الرومانية لمصطفى العبادي (ص ٢٤٣- ٢٦٤)، وقصة الحضارة لول ديورانت (ج ١١، ١٢، ١٣، ١٤)، وعصر الخلافة الراشدة لأكرم العمري.

المطلب التاريخي الثاني

الأحداث التي سجلتها السيرة النبوية تزامنًا مع المراحل الأخيرة من هذا الصراع، وبخاصة كرَّة الروم الأخيرة على الفرس وما تلاها

يتضح مما سبق أن الحلقة الأخيرة من السجال الذي كان بين الفرس والروم دامت ما يزيد على عقد من الزمان. ويمكن تأريخ بدايتها من العام ٦١٤م وهو العام الذي سقط فيه بيت المقدس في يد «أبرويز» - ولكن هذا على سبيل التقريب، لأن من المؤكد أن حملاته قد بدأت قبل هذا التاريخ - وانتهت عام ٦٢٨م حينما عقد «شِيرَوَيْهِ» ابن «أبرويز» الصلح مع «هرقل». أما حملات الروم بقيادة «هرقل» على الفرس فقد استغرقت حوالي ٦سنوات بدأت من عام ٦٢٢م الذي هزم فيه الفرس في آسيا الصغرى - وحتى عام ٦٢٨م. وهذه البُرهة من الزمان تقع بين السنة الثانية عشرة من البعثة والسنة السادسة من الهجرة (٦هـ)(*). وجليّ أن هذه السنوات الست حملت انعطافات تاريخية على الساحتين الداخلية والخارجية. وقد عرفنا الساحة الخارجية، فماذا عن الساحة الداخلية، وما مرّ به الإسلام من أحداث فيها؟

مما لا شك فيه أن كل يوم في هذه السنوات الست، كان فارقًا في تاريخ الإسلام، وأخذت وتيرة الأحداث تتسارع، بعد أن كانت الدعوة تراوح مكانها في شعاب مكة المظلمة القاسية طوال السنوات العشر الأولى من عمر البعثة النبوية. وفي العامين: الحادي عشر والثاني عشر بدأ مسار الدعوة يتطور، فبعد طول عناء وجدت من ينصرها وينصر نبيها في بيعة العقبة الأولى، ثم وجدت أرضًا تحتضنها وسماء تظلها في بيعة العقبة الثانية، فكانت الهجرة إلى المدينة. وفور وصوله ﷺ إلى المدينة شرع في وضع أسس الدولة الإسلامية وصياغة صورة المجتمع فيها، لكن هذا لم يعن أن المسلمين استراحوا من وَخْز قريش. فقد ظلت صداعًا مُؤرقًا للمسلمين، حتى عُقِدت هدنة الحديبية، فبها تم تسكين الألم، ولم يتم الشفاء منه تمامًا إلا في فتح مكة عام ٨هـ.

(*) هذا التقويم المزدوج منقول من «عصر الخلافة الراشدة» «أكرم العمري» من (ص ٣٣١، ص ٣٣٥).

إذن، كان من الخير للمسلمين ألا تنفتح عليهم بوابات أخرى من المواجهات، وبخاصة أن قريشًا لم تألُ جهدًا لاستعداء من استطاعت على المسلمين، كما فعلت قبل الهجرة مع النجاشي وبعدها، كما كان مع يهود المدينة وبعض القبائل العربية في غزوة الأحزاب، ولربما تحاول أن تستعدي الفرس أو الروم، لولا التهاء كلٍّ منهما بالأخرى.

ظلت الأوضاع كذلك حتى قُشِعَت عن العام السادس الهجري غيوم الغيب؛ لِتَطَأَ يُمْنَاه عالم الشهادة، ويُؤْذِنَنا بأن جُعْبته ملآنةٌ بالأحداث والتطورات. وقد لا ينبئ التزامن بين هذه الأحداث عن أكثر من مجرد التزامن، وهذا مذهب التفسير الشائع، وقد يشي هذا التزامن بتراكب بين تلك الأحداث، وربما إن أمعنّا النظر أكثر وأكثر وجدناه يفصح عن تفاعل. والفارق بين التراكب والتفاعل كالفارق بين التصادف والتواعد. فما تلك الأحداث؟ وكيف يمكن التثبت ـ أولا ـ من تزامنها تاريخيًّا؟

١ـ أخرج البخاري في كتاب «بدء الوحي» من صحيحه: باب كيف كان بدء الوحي: «حدثنا أبو اليمان الحكم بن نافع، قال: أخبرنا شعيب عن الزهري، قال: أخبرني عبيد اللَّه بن عبداللَّه بن عتبة بن مسعود أن عبداللَّه بن عباس أخبره: أن أبا سفيان بن حرب أخبره: أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش، وكانوا تجارًا بالشام في المدة التي كان رسول اللَّه ﷺ مَادّ فيها أبا سفيان وكفار قريش، فأتوه وهم بإيلياء، فدعاهم في مجلسه، وحوله عظماء الروم، ثم دعاهم ودعا ترجمانه، فقال: أيكم أقرب نسبًا بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقال أبو سفيان: أنا أقربهم نسبًا... ثم قال(*) لترجمانه: قل لهم إني سائلٌ هذا عن هذا الرجل، فإن كَذَبَني فكذِّبوه، قال: فَوَاللَّه لولا الحياء من أن يَأْثِروا علي كَذِبًا لكَذَبت عنه. ثم كان أول ما سألني عنه أن قال: ... قال: فهل يغدر؟ قلت: لا، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها... فقال للترجمان قل له: ...، فإن كان ما تقول حقًّا فسيملك موضع قدمي هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج، ولم أكن أظن أنه منكم، فلو أني أعلم أني أَخْلُص إليه

(*) أي: قيصر.

لتَجَشَّمْتُ لقاءه ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه. ثم دعا بكتاب رسول اللَّه ﷺ الذي بعث به دِحْيَة إلى عظيم بُصْرَى فدفعه إلى هِرَقْل، فقرأه، فإذا فيه: بسم اللَّه الرحمن الرحيم من محمد عبداللَّه ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أَسْلِم تَسْلَم، يُؤتك اللَّه أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأَرِيسِيِّين(*) و﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]. قال أبو سفيان: فلما قال ما قال وفرغ من قراءة الكتاب، كَثُر عنده الصخَب وارتفعت الأصوات وأُخرِجنا... وكان ابن الناطور ـ أسقف على نصارى الشام ـ يحدث ... ثم كتب هرقل إلى صاحب له برومية، وكان نظيره في العلم وسار هرقل إلى حمص، فلم يَرُم حمص حتى أتاه كتابه من صاحبه يوافق رأي هرقل على خروج النبي ﷺ وأنه نبي، فأذن هرقل لعظماء الروم في دَسْكَرَةٍ له بِحِمْص، ثم أمر بأبوابها فغُلِّقَت، ثم اطَّلَعَ، فقال: يا معشر الروم: هل لكم في الفلاح والرشد، وأن يَثْبُت ملكُكُم، فَتُبَايعوا هذا النبي. فحاصوا حَيْصَة حُمُرِ الوَحْش إلى الأبواب، فوجدوها قد غُلِّقت فلمّا رَأَى هرقل نَفْرَتَهم وَأَيِسَ من الإيمان، قال: رُدُّوهم عَلَيّ، وقال: إِنِّي قلت مقالتي آنِفًا أَخْتَبِر بِها شدتكم على دينكم، فقد رأيت منكم الذي أحببت، فسجدوا له وَرَضُوا عنه، فكان ذلك آخر شأن هرقل...»(٤٥).

٢ـ وكذلك أخرج البخاري، في كتاب الجهاد، باب: دعاء النبي ﷺ الناس إلى الإسلام والنبوة: «حدثنا إبراهيم بن حمزة، حدثنا إبراهيم بن سعد، عن صالح بن كيسان، عن ابن شهاب، عن عبيداللَّه بن عبداللَّه بن عتبة، عن عبداللَّه بن عباس ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ أنه أخبره(**): أن رسول اللَّه ﷺ كتب إلى قيصر يدعوه إلى الإسلام، وبعث بكتابه إليه مع دِحْيَة الكَلْبِيّ، وأمره رسول اللَّه ﷺ أن يدفعه إلى عظيم

(*) الأريسيين أو اليريسيين: هم التابعون أو الضعفاء، والبعض خصصها بالفلاحين.

(٤٥) أبو عبداللَّه بن إسماعيل البخاري، الجامع المسند الصحيح (م١/ ح١/ ص٤ـ٧).

(**) أي أن ابن عباس أخبر عبيدالله بن عبدالله بن عتبة.

بُصْرَى؛ ليدفعه إلى قيصر، وكان قيصر لما كشف الله عنه جنود فارس، مشى من حمص إلى إيلياء شكرًا لما أبلاه الله، فلما جاء قيصرَ كتابُ رسول الله ﷺ، قال حين قرأه: التمسوا لي ها هنا أحدًا من قومه لأسألهم عن رسول الله ﷺ»[٤٦].

٣ـ وقد أخرج مسلم الرواية نفسها في كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام: «حدثنا إسحاق بن إبراهيم الحنظلي، وابن أبي عُمَر، ومحمد بن رافع، وعبد بن حميد، واللفظ لابن رافع، قال ابن رافع وابن أبي عُمَر: حدثنا، وقال الآخران: أخبرنا عبدالرازق: أخبرنا مَعْمَر، عن الزُّهْرِيّ، عن عبيدالله بن عبدالله بن عتبة، عن ابن عباس: أن أبا سفيان أخبره مِنْ فِيهِ إلى فِيهِ...»[٤٧]، بمثل ما رُوي عن أبي سفيان، إلا أنها ليس فيها قصة ابن الناطور.

❑ التعليق على الروايات

فيما يتعلق بالرواية الأولى: لا بد من التنبيه على أنَّ الرواية ليست كلها عن أبي سفيان. فروايته تنتهي بحكايته لشأنه عندما أُخرِج هو ومن معه، ومن أول: «وكان ابن الناطور...» تبدأ الرواية عن ابن الناطور. ولكن من الرواي عن ابن الناطور؟

ذكر ابن حجر في فتح الباري عند شرحه لهذه الرواية: «الواو في قوله (وكان) عاطفة، والتقدير: (عن الزهري أخبرني عبيدالله) فذكر الحديث، ثم قال الزهري: (وكان ابن الناطور يحدث) فذكر هذه القصة. فهي موصولة إلى ابن الناطور لا معلقة، كما زعم بعض من لا عناية له بهذا الشأن. وكذلك أَغْرَبَ بعض المَغَارِبَة فزعم أنّ قصة ابن الناطور مرويةٌ بالإسناد المذكور عن أبي سفيان عنه... وقد بين أبو نُعَيم في دلائل النبوة أن الزُّهْرِي قال: لَقِيتُه ـ أي ابن الناطور ـ بدمشق في زمن عبدالملك بن مروان. وأظنه ـ والكلام لابن حجر ـ لم يتحمَّل عنه ذلك إلا بعد أن أسلم. وإنما وصفه بكونه كان سُقفًا لينبه على أنه كان مُطلعًا على أسرارهم..»[٤٨]. وأما الإرسال في

---

(٤٦) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري في شرح صحيح البخاري، (م٦/ ص١٠٩/ رقم: ٢٩٤٠).
(٤٧) مسلم بن الحجاج النيسابوري، المسند الصحيح أسطوانة مدمجة/ الرواية برقم (١٧٧٣).
(٤٨) ابن حجر، مرجع سابق، (ج١، ص٤٠) أسطوانة مدمجة.

الرواية فهو من جهة ابن الناطور فيما قصَّه عن شأن هرقل؛ لأنه لم يذكر من روى هو عنه هذه القصة.

وأما أبو سفيان بن حرب فقد كان شاهد عيان، بل ودار بينه وبين هِرَقْل حوار بصدد رسالة رسول اللَّه ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ ـ إليه، وهذا ما يفسر حرص ابن عباس رضي الله عنه على أن يسمع منه ويستوضحه، وهذا ما دلت عليه ألفاظ أُخرى للرواية نفسها وردت في مواضع أخرى من صحيح البخاري وكذلك رواية صحيح مسلم المذكورة التي فيها: «عن ابن عباس: أن أبا سفيان أخبره من فِيهِ إلى فِيهِ». فأراد بذلك أن يستوضح منه ما دار بينه وبين قيصر(*)، كما عَلِمَ في رواية صحيحة أخرى، سيأتي ذكرها ـ رد فعل كِسرى. وهو ذاته ما دفع الزهري إلى الاستزادة من ابن الناطور.

ويتضح جليًّا مدى الانسجام بين الرواية التي رواها ابن عباس عن أبي سفيان وبين روايته هو، وكذلك انسجامهما مع قصة ابن الناطور.

وقد اكتفى البحث بتلك الروايات عن روايات أخرى تذهب إلى أن رسول اللَّه ﷺ أرسل مع دِحْيَة الكلبي عَدِيّ بن حاتم الطائي وهو على نصرانيته. وكذلك هناك روايات تحكي حوارًا دار بين قيصر ودِحْيَة الكلبي. ذلك لأنها ـ بغض النظر عن صحة سندها ـ لا تتعارض مع هذه الروايات السابقة، كما أنها لم تأت بجديد مؤثر في مسار البحث.

❑ ما تدل عليه هذه الروايات:

تدل هذه الروايات الصحيحة دلالة مباشرة على أن أحداثًا ثلاثة قد تزامنت بعضها مع بعض، وهي:

١ـ تمام غلبة الروم على الفرس، حيث يدل لفظ الرواية على أن هِرَقْل كان قد فرغ لِتَوَلِّهِ من حربه مع الفرس، ولما اطْمَأَنّ لِصَفَاء الأمر له، أقام طقوس الشكر، والتي

(*) لأن ما دار بين أبي سفيان وبين قيصر كان قبل إدخال الرسالة عليه، سواء أكان دحية دخل مع عظيم بُصرى، أو كان عظيم بصرى هو من سلمها وحده.

اعتادت الإمبراطوريات أن تزين بها احتفالاتها. إذن لم تكن الغلبة هنا مرحلية، فلم يعد باب السجال مفتوحًا، ولم تعد الحرب بين كرٍّ وفرٍّ، فقد وضعت أوزارَها، وفُصِلَت عاقبتُها للروم، وهذا ما أشارت إليه الآيات. فمن المؤكد أن معارك ومواجهاتٍ عسكرية كثيرة قد دارت بينهما سواءٌ في صَوْلَة الفرس أو من بعدها، في صَوْلَة الروم. إلا أن بعضًا من هذه المعارك يُعدُّ القاصمة. فكما كانت معارك الشام وتحديدًا تلك التي جرت في ﴿أَدْنَى ٱلْأَرْضِ﴾ [الروم: ٣] معاركَ قاصمة؛ لأنها تعني انهيار خط الدفاع الرئيس، بما سمح بتغلغل الفرس داخل الإمبراطورية الرومانية. كذلك فإن معركة (نَيْنَوَى) كانت القاصمة للفرس؛ لأنها أزالت أي حواجز لتغلغل الروم في الإمبراطورية الفارسية، وقد كان ذلك بدخولهم المدائن وتخريبها، وأما ما قبل ذلك فقد كان لاستعادة ما استولى عليه الفرس من الإمبراطورية الرومانية. فما تقصده الآيات ـ واللَّه أعلم ـ «العاقبة النهائية» التي بها غُلِبَ الفرس على أمرهم وقُهِرُوا من قبل الروم، وهو ما تحكيه لنا الرواية الصحيحة عن ابن عباس، وهو ذاته ـ ما وَقَّتَتْ به الآيات فرحةَ المؤمنين. فما الأحداث التي وقعت للمؤمنين في هذا الوقت؟ وما التطورات التي شهدتها دعوة الإسلام، تزامنًا مع التطور الأخير في الصراع بين الروم والفرس (أي غلبة الروم على الفرس)؟

٢ـ الهُدنة بين رسول اللَّه ﷺ والمؤمنين، وبين قريش. فالروايات تحكي لنا أن قيصر لما وصل إلى إيلياء للاحتفال بغلبة الروم، وصلته رسالة رسول اللَّه ﷺ، أوصلها له عظيم بُصرى. فلما علم أنها من رجل ـ على حد قوله ـ يزعم أنه نبي، بحث عن أيٍّ من أقربائه؛ ليستفهم عن حاله. فأحضروا له أبا سفيان، والذي ذُكِر في الرواية أنهم، أي قريشًا في مدة من رسول اللَّه ﷺ. وهي ما عُرِف «بصلح الحديبية»(*)، وهو ما سماه القرآن ﴿فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١]، **فكيف كانت هدنة الحديبية فتحًا مبينًا؟**

أخرج البخاري في صحيحه: «حدثنا محمد بن بشار، حدثنا غندر، حدثنا

(*) وبهذا يتحتم استبعاد الروايات التي تذهب إلى تزامن غلبة الروم مع يوم بدر؛ لأن يوم بدر وقع وقت أن كانت المعارك مشتعلة بين الروم والفرس، ولم تصل إلى مرحلة مطمئنة وفاصلة.

شُعْبَة، قال: سمعت قَتَادَة، عن أنس رضي الله عنه: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ قال: الحديبية»[٤٩] على الرغم من أن ملابسات نزول هذه الآيات مختلطة بالحزن والكآبة، على عكس ما تحمله آيات سورة الروم من بشارة. فقد اغتمّ المسلمون من عدم دخولهم مكة، وتذمروا من شروط هدنة الحديبية، ومن صياغة عقدها، حيث مُسِح منه لفظ «رسول الله» ومن الأحداث التي رافقت مفاوضات الهدنة وما بعد إبرامها. فقد كانوا يرون هذا كله مُجْحِفًا، ولم يَتفهَّموا الحكمة من قَبُول رسول اللَّه ﷺ له، وظلوا على هذه الحال من الحزن والغمّ في طريق عودتهم، حتى نزلت ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾[*].

والحق أن رسول اللَّه ﷺ قد أُشْعِر قبل بُلوغه الحديبية، بأنه عليه أن يُغْمِد سيفه، خلافًا لما اتفق عليه رأي الصحابة ـ حينما استشارهم رسول اللَّه ـ من أن يقاتلوا المشركين إذا ما صدوهم عن البيت الحرام، ومنعوهم من الاعتمار به. وكان إشعاره بأن بَرَكت ناقته القَصوَاء قبل الحديبية فقالوا: خَلأَتِ القَصْوَاء. فقال النبي ﷺ: «ما خَلأَت القَصْوَاء وما ذلك لها بخلق، ولكن حَبَسها حابس الفيل». ثم قال «والذي نفسي بيده، لا يسألونني خِطَّة يعظمون فيها حرمات اللَّه إلا أعطيتهم إياها»[٥٠]. «ولذلك صبر رسول اللَّه ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ ـ على استغاثة أبي جَنْدَل بن سُهَيْل بن عمرو حينما رُدَّ إلى أبيه وقومه ـ بَمْوْجِب الاتفاق على رَدّ كل رجل يفِرُّ بدينه

---

(٤٩) ابن حجر، مرجع سابق، كتاب التفسير/ باب سورة الفتح (م٨/ ص٥٨٢/ رقم: ٤٨٣٤).

(*) وكذلك في صحيح مسلم: «عن قتادة، أن أنس بن مالك حدثهم، قال: لما نزلت ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ الآية إلى قوله: ﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١-٥]، مرجعه من الحديبية، وهم يخالطهم الحزن والكآبة، وقد نحر الهدي بالحديبية، فقال: «لقد أنزلت علي آية هي أحب إلي من الدنيا جميعًا» ـ أي الرسول ﷺ. وبذلك تستبعد الآراء الذاهبة إلى أن «فتح خيبر هو الفتح المبين، وهو ما ذهب إليه مجاهد والعوفي» (وهما تابعيان)؛ لأن فتح خيبر أقل من أن يوصف بالفتح المبين، وكذلك تستبعد الآراء المؤدية إلى تمييع معنى الفتح المبين بتفسيره بـ«أنه الظفر على الأعداء كلهم بالحجج والمعجزات الظاهرة وإعلاء كلمة الإسلام» وهو ما أورده الطبرسي في تفسيره. فتنوع وصف الفتح بين مبين وقريب وسياقاته في السورة نفسها (الفتح) تؤكد خصوصية المعنى لا عموميته.

(٥٠) ابن حجر العسقلاني، مرجع سابق/ حديث رقم (٢٧٣١).

إلى المسلمين من قريشٍ إلى قريش، دون اشتراط العكس. وصبر على تحرشات قريش، سواءً في أثناء المفاوضات على الهدنة، أو بعد إنجازها. فقد تكرر وثوب رجال من قريش على معسكر المسلمين، بل وأراد أربعة منهم أن ينالوا رسول الله بشر، بعد عقد الصلح، وفي كل مرة كان المسلمون يَأْسِرون المعتدين، ثم يطلقهم رسول الله ﷺ(*). إذن لم يكن المقصود من هدنة الحديبية إقرار الأوضاع القائمة على ما هي عليه، كما هو الحال في مصالحة أهل البلاد المفتوحة على الجزية، مَثَلا. بل كان المقصود تنحية صحيفة قريش جانبًا في تلك اللحظة التاريخية، ولبعض الوقت ـ دون أن تُطْوَى، وكان ذلك لحكمةٍ بالغة. فما تلك الحكمة؟ وهذا يعيدنا مرة أخرى إلى السؤال نفسه: لماذا سميت هدنة الحديبية فتحًا مبينًا في القرآن الكريم؟

عند الرجوع إلى التراث التفسيري، نجد أن هناك اتجاهين للإجابة على هذا السؤال.

أولهما: تفسير موضعي، وهو الذاهب إلى تفسير الفتح المبين بما وقع من أحداث في أثناء غزوة الحديبية ككل. ومستند هذا الاتجاه ما أخرجه البخاري في كتاب المغازي من صحيحه، «... عن البرَّاء ﷺ، قال: تعدون أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحًا، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية. كنا مع النبي ﷺ أربع عشرة مئة، والحديبية بئر، فنزحناها، فلم نترك فيها قطرة، فبلغ ذلك النبي ﷺ فأتاها، فجلس على شفيرها، ثم دعا بإناء من ماء، فتوضأ ثم مضمض ودعا، ثم صبه فيها، فتركناها غير بعيد، ثم إنها أَصْدَرَتْنَا ما شئنا نحن وركابنا»(٥١). ويُسْتَشَفُّ من هذه الرواية، أن خلطًا ـ وقع فيه من لم يشهد هذه الوقعة ـ بين تفسير الفتح المبين بفتح مكة، وبين تفسيره بغزوة الحديبية ـ وربما يُغذِّي هذا الخلط عند الأجيال اللاحقة هذا التعارض المُتَوهَّم بين هذه الرواية الصحيحة وما سبقها من روايات صحيحة تذهب

(*) يراجع في أحداث عمرة وهدنة الحديبية «السيرة النبوية الصحيحة» لأكرم العمري، (م٢، ص٤٣٤، ص٤٥٣)، واللفظ من البحث.

(٥١) القرطبي، مرجع سابق، (م٨/ ج١٦/ ص١٧٢).

إلى أن الفتح المبين هو الحديبية، وبين رواية صحيحة ـ أيضًا ـ قد يُفهم منها أنَّ المقصود هو فتح مكة، كما سيأتي بعد أسطرٍ قليلة. وعلى أيٍّ، فهناك آثار عن التابعين تتماشى مع هذا الاتجاه الموضعي ـ وإن كان البحث لم يتحقق من صحة سندها اكتفاءً باتفاق مضمونها مع الروايات الصحيحة ـ، قال مجاهد: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ هو «مَنْحَرَه بالحديبية وحَلْقِه رأسه، وقال: كانت آية عظيمة، نُزِحَ ماؤها فمجَّ فيها فَدرَّت بالماء. وذكر أبو داود والحاكم من حديث مجمع بن حارثة، قال رجل عند مُنْصَرَفهم من الحديبية: ما هذا بفتح! لقد صدونا عن البيت. فقال النبي ﷺ: «بل هو أعظم الفتوح، قد رضى المشركون أن يدفعوكم عن بلادهم بالراح ويسألونكم القضية(*) ويرغبون إليكم في الأمان، وقد رأوا منكم ما كرهوا»(٥٢) وما سبق يشهد بأن هذا تفسير قاصر عن معنى الفتح المبين.

ثانيهما: توفيقي ينزع إلى التكاملية، كوسيلة للتوفيق بين الروايات والآراء المتعارضة، لا كمنهاج للتفسير، فهناك ـ كما سبق التنويه ـ روايات صحيحة يفهم منها أن الفتح المبين هو فتح مكة. فقد أخرج البخاري في صحيحه عن عبدالله بن مُغفَّل، قال: «قرأ النبي ﷺ يوم فتح مكة سورة الفتح فَرَجَّع فيها...»(٥٣).

ومن هنا ينطلق هذا الاتجاه التوفيقي للربط بين الحديبية وفتح مكة ورَتْق الفَتْق الظاهر بين تلك الروايات الصحيحة. ويسير في هذا الاتجاه ما رُوِي عن الزُّهري(**): «لقد كانت الحديبية أعظم الفتوح»(٥٤) وعلل ابن هشام ذلك: «بأن النبي ﷺ جاء إليها في ألف وأربع مئة، فلما وقع الصلح مشى الناس بعضهم في بعض، وعلموا وسمعوا عن الله فما أراد أحد الإسلام إلا تمكن منه، فما مضت تلك السنتان، إلا

(*) أي التفاوض على الهدنة.

(٥٢) القرطبي، مرجع سابق، (م٨/ ج١٦/ ص١٧٣).

(٥٣) البخاري، كتاب التفسير/ باب: إنَّا فتحنا لك فتحا مبينًا/ حديث (٤٨٣٥).

(**) لم يتوقف البحث عند تحقيق سند هذه الرواية، لأن مضمونها صحيح يتفق مع ما يفهم من روايات أخرى صحيحة بأن قفزة كبيرة حدثت للمسلمين فيما بين غزوة الحديبية وغزوة الفتح من حيث العدد، والقدرة على التعبئة.

(٥٤) ابن حجر، مرجع سابق، باب غزوة الحديبية (م٧/ ٤٤١).

والمسلمون قد جاءوا إلى مكة في عشرة آلاف»[٥٤].

وتوَّج ابن حجر هذا الاتجاه بقوله: «وهذا موضع وقع فيه اختلاف قديم، والتحقيق أنه يختلف باختلاف المراد من الآيات فقوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ المراد به الحديبية، لأنها كانت مبدأ الفتح المبين على المسلمين، لما ترتب على الصلح الذي وقع منه الأمن ورفع الحرب، وتمكن من أراد الإسلام من الدخول فيه، والوصول إلى المدينة .. ثم تبعت الأسباب بعضُها بعضًا، إلى أن كَمُل الفتح... وأما قوله ـ تَعَالَى ـ في هذه السورة: ﴿وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾[٥] [الفتح:١٨] فالمراد به فتح خيبر على الصحيح؛ لأنها هي التي وقعت فيها المغانم الكثيرة للمسلمين... وأما قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح:٢٧] فالمراد به الحديبية. وأما قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾ [النصر:١] وقوله ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح»: فالمراد به فتح مكة باتفاق»[٥٥] اهـ. ويفهم من كلام ابن حجر: أن المقصود بالفتح المبين، هو فتح ذو مراحل متعددة أخذت تتتابع إلا أن مَبْدَأها (اللحظة الفارقة التي بدأ منها الفتح المبين) كان في الحديبية، وذروتها فتح مكة. وأما قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ۝٢٧﴾ [الفتح: ٢٧] فالمقصود فيها ـ كما ذهب ابن حجر ـ ما وقع من أحداث في غزوة الحديبية ذاتها، فهي على ذلك الفتح القريب الذي سبق فتح مكة.

---

(٥٤) نفس المرجع السابق.

(٥) قال ـ تَعَالَى ـ: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۝١٨ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝١٩﴾ [الفتح: ١٨، ١٩] ومما يدل على أن الفتح القريب هنا وقع بعد الحديبية قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَأَثَٰبَهُمْ﴾. وأما قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ [الصف: ١٣] فهي بشارة للمؤمنين الصادقين في كل زمان ومكان بالعون والتمكين في العاجلة (الدنيا) حتى لا يظنوا أن الثواب قاصر على الآخرة فقط، وهذا ما يفهم من سياق الآيات قبلها.

(٥٥) ابن حجر، فتح الباري، كتاب المغازي/ باب (إنا فتحنا لك) م٧/ص٤٤٢.

ويستفاد مما سبق أن الحديبية تعد فتحًا مبينًا، لا لذاتها، وإنما لما ترتب عليها. وقد سبق في المبحث اللغوي توضيح أن معنى الفتح، فيما نحن بصدده، هو تذليل وتمهيد ما كان ممتنعًا، سواءٌ أكان الامتناع ماديًّا أم معنويًّا، وهو هنا، إذ قد وصف بالمُبين، فيكون معناه: أن هدنة الحديبية تمثل نقطة فاصلة (مُبينة) تبدأ بها مرحلة جديدة في عمر الدعوة الإسلامية ودولة الإسلام. ولأن ابن حجر اتخذ من التكاملية ما يعينه على التوفيق بين الآراء المختلفة ـ وحَسْب ـ انصب تركيزه على فتح مكة، على الرغم من أن أحداثًا لا تقل أهمية عن فتح مكة أعقبت هدنة الحديبية مباشرة وينطبق عليها وصف الفتح المبين. وهي مكاتبة الملوك والأمراء وما ترتب عليها من انطلاق الدعوة إلى آفاق جديدة.

مصداق ذلك الآية السادسة عشرة من سورة الفتح؛ فقد أَوْمَأَت الآية السادسة عشرة من سورة الفتح إلى هذا المعنى، قال ـ تَعَالَى ـ: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾﴾ [الفتح: ١٦] واختلف أهل التأويل ـ من الصحابة والتابعين ـ في هؤلاء الذين أخبر اللَّه ﷻ أن المخلفين من الأعراب سيدعون إلى قتالهم. فهناك من قال: إنهم الفرس، وهناك من قال: الروم، وهناك من قال: فارس والروم، ورأي رابع يذهب إلى أنهم هوازن وثقيف، وخامس إلى أنهم بنو حنيفة، ورأي يذهب إلى أن تحقق هذه الآية ـ آنذاك ـ لم يأتِ بعد. ولأن كل هذا تفسير بالرأي فلم يجد البحث داعيًا إلى تحقيقها، وبخاصة أن ابن جرير الطبري حاول التوفيق بين هذه الآراء بقول ينتظمها جميعًا ويتسع لغيرها، على أساس أن الوصف مبهم قد ينطبق على كل من ذُكِر أو بعضهم، أو غيرهم حيث قال: «ولم يوضح لنا الدليل من خبر ولا عقل على أن المعنيّ بذلك هوازن، ولا بنو حنيفة ولا فارس ولا الروم، ولا أعيان بأعيانهم، وجائز أن يكون عُني بذلك بعض هذه الأجناس أو كلها، وجائز أن يكون عُني بهم غيرهم، ولا قول فيه أصح من أن يقال كما قال اللَّه ﷻ: إنهم سيُدعون إلى قوم أُولي بأس شديد»(٥٦).

(٥٦) ابن جرير الطبري، الجامع لأحكام القرآن، م١١/ ص٤٦.

ورأى الإمام ابن جرير الطبري فيه وجاهة من جهة أن تحديد جنس من هذه الأجناس لا يستند إلى دليل إلا أن إبهامه للأمر يفتح الباب للتسويف الزماني، فقد تتحقق الآية بعد قرون من نزولها على رسول اللّه ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ ـ. فحقيقٌ أنه لا يوجد دليل عقلي أو نقلي مباشر يحدد لنا أعيان هؤلاء الموصوفين بأنهم أولي بأس شديد، إلا أن سياق الآيات السابقة، ولفظ الآية ذاتها يحدد لنا أعيان المخاطَبين بها. فقوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾، تعني: قل يا محمد لهؤلاء المخلفين من الأعراب الذين تخلّفُوا عنك في غزوة الحديبية، والذين قالوا لك بعد عودتك: ﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ [الفتح:١١]، والذين ظنوا أنك والمؤمنين معك لن تنقلبوا إلى أهليكم، والذين سيقولون لك بعد ذلك: ﴿إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾ [الفتح:١٥]، فُرُدّ عليهم حينها بـ: ﴿لَن تَتَّبِعُونَا﴾، وسيقولون بجهلهم ﴿بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾، قل لهؤلاء: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾. إذن كان المخاطبون معاصرين لرسول اللّه ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ ـ، يدور بينه وبينهم جدال، وجذب وشدّ، وكان لهم مع المسلمين الأوائل مواقف مخزية. فلا بد وأن يكون هؤلاء الذين سيُدعون إلى قتال أُولي البأس الشديد هم أنفسهم من كلمتنا عنهم الآيات السابقة على هذه الآية بأشخاصهم وجَمْعهم، أولًا، ثم يمتد معنى الآية ليشمل ـ بالإضافة إليهم ـ كل من يتصف بصفاتهم من زمانهم أو ممن سيأتي بعدهم، ولكن لا بد وأن يشملهم أولًا. فيكون معنى إخبار رسول اللّه ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ ـ واللّه أعلم ـ إنكم أيها الأعراب الذين خذلتم رسول اللّه ﷺ والمؤمنين وتهربتم من قتال قريش، وفوق هذا تطمعون في جمع الغنائم، ستدعون إلى قوم شديدي البأس ـ قتال قريش ضئيلٌ شأنه إلى جانب قتالهم ـ وقتالهم يحتاج إلى عقيدة ثابتة، لا إلى لهفة على الغنائم. وبالتالي فإنَّ تحقق الآية كان في عهد رسول اللّه ﷺ بعد غزوة الحديبية، فعلينا أن ننظر في هؤلاء الذين اشتبك معهم المسلمون في حروب ضروس ومعارك ضارية في هذا الوقت. فسنجد الروم في غزوة مؤتة قبل الفتح ـ وتكرر لقاؤهم في عهد رسول اللّه ﷺ بعد مؤتة ـ وثقيفًا وهوازن في حنين، وبعض الاشتباكات مع بعض القبائل العربية. إلا

أن هذه النقلة النوعية التي تحدثنا عنها الآية تبدو أجلى وأوضح في الروم أكثر منها في غيرهم. ذلك لأن العرب ألفوا حروب القبائل، وأي تفاوت فيما بينها يكون في الدرجة فقط. وأما مواجهة الجيوش الإمبراطورية؛ فلم يألفها العرب، باستثناء ما كان من وَلَع ملوك اليمن من التبابعة بالغزو خارج بلادهم، وكذلك ما كان بين قبيلة بكر بن وائل والفرس يوم ذي قار. وأما تحت راية التوحيد، فكان أول عهد العرب بهذا النوع من الحروب مع الروم.

والحاصل من كل هذا أن الآية إيذان ببدء مرحلة جديدة في تاريخ الدعوة الإسلامية. نعم لم يوجه الخطاب في الآية للمؤمنين وإنما للمخلفين من الأعراب؛ لأن ثابت العقيدة يستوي عنده ذو البأس الشديد بمن لا بأس له، فالفارق يكمن فيه هُوَ لا في عدوه، وأما المنافق مذبذب العقيدة؛ فترتعد فرائصه أمام من لا حيلة له، فضلًا عمن لا بأس له، فكيف بمن بأسه شديد؟! ولأن قتال أي قوم لا بد وأن يكون بعد إعلامهم، ثم النظر في ردّ فعلهم سَلْبًا كان أو إيجابًا، فإن كان الأول كان لا بد من قتال الكيانات المادية السلطوية التي ترى الإسلام تهديدًا لنفوذها بهدمه للأفكار التي تغذيها وتضمن لها الاستمرارية ـ وهذا ما سيزداد وضوحًا في الصفحات التالية ـ فكان لا بد من مكاتبة الملوك والأمراء أولًا. فكيف كان هذا؟

٣ـ مكاتبة رسول اللَّه ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ ـ للملوك والأمراء

ثبت بالرواية الصحيحة أن قيصر تَلَقَّى رسالة رسول اللَّه ﷺ في أثناء هدنة الحديبية. وهذا يعني أن رسول اللَّه ﷺ قد شَرَع في هذا الوقت بالخروج بالدعوة الإسلامية من نطاق الجزيرة العربية، وبذلك فإن مكاتبة رسول اللَّه ﷺ لقيصر، لا بد وأنها قد أُتْبِعَت ـ بوصفها استهلالًا ـ بمكاتبات أخرى لغيره من الملوك والأمراء، وبخاصة كسرى الفرس؛ لأنه هو، وقيصر ينضوي تحت سلطانهما بقية الملوك والأمراء ـ من أمثال مُقَوْقس مصر، وأمير البحرين، وملك أَيْلَة... ـ فلا بد وأن يبدأ بالرأس قبل الأطراف، وبالمتبوع قبل التابع. فالتابع إما أن يكون ولاؤه كحبات الرمال، في أي اتجاهٍ هبت الريح كانت معها، وحيثما كانت الغلبة كانت قبلته، وإما أنه

مغلوبٌ مقهورٌ لا ينعتق إلا بتحطيم أغلال القهر. وفي كلا الحالين، ليس هناك إلا خياران: إما أن تَنْبَسط قبضةُ السيد لِتُصَافِح، وإما أَنْ يُضْرَبَ على قَبْضَتِه لِتَرْتَخِي شيئًا فشيئًا ويتساقط المقبوض تِبَاعًا، وغالبًا ما تُسهِم عواملِ داخلية في إرخاء تلك القبضة.

وما سبق يدفع إلى الاطمئنان إلى التاريخ الذي حدده المؤرخون ـ وإن كان لا يستند إلى رواية مُسندة صحيحة ـ على أنّ إرسال الرسل قد بدأ فيه، «فقد ذهب الطبريّ والواقدي إلى أن إرسال الرسل قد بدأ في ذي الحجة سنة ٦هـ، بينما ذهب ابن سعد إلى أن ذلك كان في محرم من العام السابع، وتابعه ابن القيم، وقد وفق ابن حجر بين القولين بقوله: «إن دِحْيَة الكلبي أُرْسِل إلى هرقل في آخر سنة ستّ بعد أنْ رَجَع النبي ﷺ مِن الحديبية فوصل إلى هِرَقْل في المحرَّم سنة سبع»[٥٧]. «وأَرَّخ ابن سعد لرسالة كِسرى لعشرٍ مَضَيْنَ مِن جُمَادى الأُولى سَنَة سَبعٍ التي قُتِل فيها كِسرى»[٥٧]. وأيًّا ما كان الخلاف، فليس بذي بالٍ، ذلك لأن الفارق بين هذه الأقوال ينحصر في نطاقٍ زمني ضيق يتفق مع الرواية الصحيحة التي أثبتت وصول رسالة رسول اللّه ﷺ إلى هرقل في أثناء معاهدة الحديبية، وكذلك مع ما أثبتته روايتان صحيحتان من أن غزوة (عمرة) الحديبية كانت في ذي القعدة. فقد أخرج البخاري في صحيحه ... عن البراء رضي الله عنه، قال: «لما اعتمر النبي ﷺ في ذي القعدة. فَأَبَى أهل مكة أن يَدَعُوه يدخل مكة حتى قاضاهم...»[٥٨]... الرواية. وأخرج ـ أيضًا في صحيحه: «... عن قتادة، أن أنسًا رضي الله عنه أخبره قال: «اعتمر رسول اللّه ﷺ أربع عُمَرٍ كلهن في ذي القعدة، إلا التي كانت مع حِجَّتِهِ، عُمرة من الحُديبية في ذي القعدة... »[٥٩]... الرواية. فالعبرة هنا ليست بدقة التواريخ، وإنما بانحصارها في حيزٍ زمني ضيق لا يتجاوز شهورًا، معلومة بدايته.

إذن، بدأ رسول اللّه ﷺ في مكاتبة الملوك والأمراء بعد إبرامه لهدنة الحديبية. على الرغم من أن عالمية الرسالة قد أثبتتها آيات الوحي المكي. قال ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧] واستدل بذلك الدكتور أكرم

(٥٧) أكرم العمري ـ السيرة النبوية الصحيحة ـ ج٢/ ص٤٥٤ ـ ٤٥٥.
(٥٨) ابن حجر، فتح الباري، كتاب المغازي/ باب عمرة القضاء م٧/ص ٤٩٩/ ٤٢٥١.
(٥٩) ابن حجر، فتح الباري، كتاب المغازي/ باب غزوة الحديبية، م٧/ص٤٣٩/ ٤١٤٨.

العمري على «خطإ النظرة القائلة بالتدرج في نطاق الدعوة من الإقليمية إلى العالمية تبعًا لاتساع النفوذ السياسي للرسول ﷺ؛ فإن صفة العالمية تقررت والمسلمون مستضعفون بمكة يخافون أن يتخطفهم الناس»(٦٠).

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا، إذا كانت عالمية الرسالة قد قُرِّرت في العهد المكي، فلماذا انتظر رسول اللَّه ﷺ كل هذا؟ ولماذا لم يكاتب الملوك وهو في مكة؟ خاصة في الفترة الأخيرة حينما أَيَس من مكة ومن الطائف، وأخذ يعرض دعوته على الحجاج باحثًا عن أنصار للدعوة المضطهدة، وعن أرضٍ تُقِلُّها وسماءٍ تُظِلُّها، حتى وفَّق اللَّه له الأوس والخزرج؟ ولماذا لم يكاتبهم بعد الهجرة وبناء نواة الدولة الإسلامية مباشرة؟! وليس المقصود إثبات التدرج؛ لأن التدرج كان يقتضي الانتظار حتى يُبَتَّ أَمْرُ قريش وحلفائها، ومن ثم باقي قبائل الجزيرة العربية، وهذا ما لم يحدث. فكلتا النظريتين ـ إن صح تسميتهما بذلك ـ لا تُسعفنا بإجابة عن سؤالٍ جوهري: لماذا في هذا التوقيت ـ بالذات ـ كاتب الرسول ﷺ قيصر وكِسرى ومن دونهما، وخرج بالدعوة من نطاق الجزيرة العربية؟

وللإجابة عن هذا السؤال الأخير لا بد من التعريج على الأحداث التي ترتبت على مكاتبة قيصر وكسرى ـ اكتفاءً بهما ـ لأنها محور الأحداث ومحور البحث أيضًا؛ ليقترب البحث بذلك شيئًا فشيئًا من نقطة البداية فتكتمل الدائرة، ويلتحم طرفا الحلقة، بالإجابة عن السؤال الرئيس في البحث: نصر اللَّه ـ المذكور في أول سورة الروم ـ الذي سيفرح به المؤمنون، لمن؟ وما هو؟

أفصحت الرواية الصحيحة التي سبقت في المطلب التاريخي والتي كان فيها أبو سفيان بن حرب شاهد عيان، عن أن هرقل أيقن بنبوة محمد ﷺ، وأنه لو أَمِن ـ حَسْبَ قوله ـ الخُلُّوص إليه لخَلَص إليه، بل ولوضع نفسه تحت قدميه، إلا أن هذا كان موقفه الشخصي، فكان رأيه هذا رأيًا فرديًّا لم يشاركه فيه أحد من بطانته المؤثرة في اتخاذ القرار. وأنكروا عليه ما رأوه منه من لين، وميلٍ لاتباع ما جاء في الرسالة، حيث

(٦٠) أكرم العمري، السيرة النبوية الصحيحة، (ج٢/ ص٤٥٥ ـ ٤٥٦).

جاء في الرواية: «فلما قال ما قال وفرغ من قراءة الكتاب كثر عنده الصخب وارتفعت الأصوات وأُخرِجنا...». وهذا ما يؤكده ما جاء في الجزء الأخير من الرواية، حينما جمع هِرَقْل عظماء الروم في دَسْكَرَةٍ له بحمص، ودار بينهم ما دار ـ ولا حاجة لتكراره هنا ـ وهو ما دل على أنهم لم يقبلوا مجرد المناقشة، فالمسألة عندهم منتهية قبل أن تبدأ. وأما هو ـ هرقل كإنسان ـ فكان يتنازعه ولاءان: الأول لإمبراطوريته وقيصريته، والثاني لإيمانه ويقينه بالنبي الخاتم، وقد اختار الأول. وهذا ما يدل عليه قوله: «فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه». وعلق ابن حجر[٦١] على قوله هذا: «لتَجَشَّمت، أي تكلفت الوصول إليه، وهذا يدل على أنه كان متيقنًا من أنه لا يسلم من القتل إن هاجر إلى النبي ﷺ[٦١]»، بينما ذهب النووي في شرحه لهذا الحديث في صحيح مسلم إلى «أنه شحَّ بملكه»[٦١]. والحق أن قوله هذا يدل على أكثر من ذلك، فقد شحَّ بنفسه على الحق وآثر ملكه وسلامته في الدنيا، وهذا ما يؤكده الجزء الأخير من الرواية في صحيح البخاري. وحتى وإن قرر أن يستجيب ليقينه، سواء بتركه للملك أو بمجابهته لمن حوله بما سيؤدي إلى قتله، كما فعل هو بمن قبله، وكما تكرر مرارًا مع أسلافه، نقول: وحتى وإن قرر أن يستجيب ليقينه فإن هذا لن يؤثر على الموقف العام للدولة الرومانية من الإسلام. وذلك لأن للإمبراطوريات استحقاقات، وأولها وأهمها قاطبة الدفاع عن الأفكار والعقائد (دينية كانت أم وضعية) التي تضفي شرعية على وجودها وتغذيها بمسوغات البقاء. وهو ما دفع الإمبراطورية الرومانية حينما كانت وثنية ـ تحيط الإمبراطور بهالة من التأليه والقداسة ـ إلى محاربة المسيحية؛ لأنها تنزع عنه هذه الصفة القدسية. ولما أدرك قسطنطين أنه لا فائدة من محاربتها، اعتنق المسيحية وأعلنها دينًا رسميًا للدولة أملًا في تحقيق الاستقرار. ولكن هَيْهَات، فقد حَدَث العكس وغرقت الإمبراطورية في حمم الضغينة والعنف المذهبي، حيث انصرفت هِمَم الأباطرة إلى تحقيق الوحدة المذهبية بالعنف والقهر والتعذيب. فلم يكن من المتوقع ـ إذن ـ أن تتخلى الإمبراطورية الرومانية عن مقومات وجودها المادي، هكذا بكل سهولة. وهذا دَيْدَن كل الإمبراطوريات، حتى تلك التي توشحت

(٦١) ابن حجر فتح الباري، م١/٥٢.

بالإسلام وتجـردت في كـينونتهـا وتكوينها وبقـائها من مفعـوليته، ولذا كان لا بد من أن تتـخذ الإمبراطورية الرومانية من الإسلام عدوا.

ومن المؤكد أن قسمات هذا الموقف قد عكسها دِحْيَة الكلبي للرسول ﷺ، ففي حالةٍ كهذه من التخبط بين الإمبراطور وبطانته سَتَرْجُح حَتْمًا كِفَّة الكثرة الملبية لنداء الملك والعصبية، وهذا ما تفصح عنه بعض الروايات بأنه فحوى ما قاله دِحْيَة للرسول. وبالتالي بات احتمال الصراع المسلح مؤكدًا، ولكن متى؟ وأين؟ ومن سيبادِر قبل أن يُبَادَر؟

هذا عن الموقف ـ وقتذاك ـ على الجبهة الرومانية، ولم يكن موقف الإمبراطورية الفارسية أفضل، بل كان أسوأ. وهذا ما تثبته الرواية التي أخرجها البخاري في صحيحه: «... عن ابن شهاب، قال أخبرني عبيدالله بن عبدالله بن عتبة: أن عبدالله بن عباس أخبره: «أن رسول الله ﷺ بعث بكتابه إلى كسرى مع عبدالله بن حذافة السهمي فأمره أن يدفعه إلى عظيم البحرين، فدفعه عظيم البحرين إلى كسرى، فلما قرأه كسرى مزقه ـ فحسبت أن ابن المسيب(*) قال: فدعا عليهم رسول الله ﷺ أن يُمزَّقوا كل مُمَزَّق»(٦٢).

● **ملاحظات على تواريخ إرسال الرسل:**

من الملاحظ أنه لا توجد رواية صحيحة تؤرِّخ لرسائل رسول الله ﷺ على وجه الدقة إلا أن الشيء الثابت الذي يُطْمَأَنُّ إليه هو أن أول رسالة بعث بها رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ ـ خارج الجزيرة العربية كانت إلى قيصر. فقد أخرج البخاري في صحيحه «... عن قتادة، قال: سمعت أنسًا رضي الله عنه يقول: «لما أراد النبي ﷺ أن يكتب إلى الروم، قيل له: إنهم لا يقرءون كتابًا إلا أن يكون مختومًا، فاتخذ خاتمًا من فضة، فكأني أنظر إلى بياضه في يده، ونقش فيه:

(*) (فحسبت أن ابن المسيب قال) القائل هو الزهري، ...، ويحتمل أن يكون ابن المسيب قد سمعه من عبدالله من حذافة صاحب القصة. فقد روى ابن سعد القصة عن عبدالله بن حذافة ـ مع بعض الاختلاف والزيادة ـ وجاء فيها أن عبدالله قال: «فقرئ عليه كتاب رسول الله ﷺ فأخذه فمزقه». أهـ [ابن حجر ـ فتح الباري ـ (م٨ ـ ١٢٧)] بتصرف.

(٦٢) ابن حجر، مرجع سابق، كتاب المغازي ـ باب كتاب النبي إلى كسرى وقيصر (ج٨ ص ١٢٦/ حديث ٤٤٢٤).

وجليٌّ من هذه الرواية أن موقف كسرى كان أكثر تحديدًا ووضوحًا في عدائه، بل واستهانته، فما فعله هو درجة من درجات إعلان الحرب. وهناك روايات مرسلة

محمد رسول الله»»[٦٣]. وهذا يدل على أن مكاتبة الروم كانت أول عهد المسلمين بمكاتبة الملوك والأمراء، وطالما أن رسالة الرسول إلى قيصر كانت قد وصلته في أثناء سريان معاهدة الحديبية، فهذا يعني أن بداية إرسال الرسل كانت عقب إبرام معاهدة الحديبية وليس قبلها، ثم تتابع إرسال الرسل بالرسائل بعد رسالة قيصر. وقد يقول قائل: إن وصول الرسالة كان في أثناء الهدنة، ولكن هذا لا يعني أن إرسالها كان كذلك في مدة الهدنة. وبالفعل قد يكون هذا الاحتمال قائما، بأن تكون كتابة الرسالة وإرسالها قبل إبرام الهدنة ووصولها بعد إبرامها، لولا ما قاله ابن عباس حكايةً عن أبي سفيان بن حرب: أنه ـ أي أبو سفيان ـ كان بالشام في رجال من قريش قدموا تجارًا في المدة التي مادّ فيها رسول الله ﷺ أبا سفيان وكفار قريش. فهذا ينفي احتمال أن يكون خبر إبرام الهدنة قد نما إليهم وهم بالشام، وترجح أن رحلتهم التجارية بدأت في المدة (الهدنة) بين المسلمين وقريش. وأول الاحتمالات الممكنة لتحقق هذا، أن يكون وصولهم إلى الشام قد تزامن مع وصول الرسالة إلى قيصر أو تقارب معه، وهذا يعني أن دِحْيَة رضي الله عنه قد فَصل من المدينة حَدَاثَةَ عودة الرسول ﷺ من الحديبية ـ وقطعًا، ليس قبل قيامه بهذه الغزوة. وأما ما فوق ذلك، بأن يكون وصول الرسالة متأخرًا عن وصولهم بفترة طالت أو قصرت، فلا إشكال فيه.

وأما عن الاختلاف حول تاريخ إرسال رسالة كسرى، ففي حين يجزم ابن سعد بأنها كانت في السنة السابعة من الهجرة، يرى غيره أنها كانت في السنة التاسعة، مستشعرين هذا من تخريج البخاري للرواية المتعلقة بذلك بعد باب غزوة تبوك والتي كانت في السنة التاسعة. وهذا مردود عليه مما سجله ابن حجر العسقلاني في أكثر من موضع خلال شرحه لصحيح البخاري. ففي كتاب المغازي قدم باب «حج أبي بكر بالناس» على ذكر أبواب الوفود. وحج أبي بكر كان في سنة تسع وكان تحديدًا في ذي الحجة (آخر سنة تسع)، وأورد ابن حجر أقوال المؤرخين والتي تُجْمِع على أن العام التاسع كان عام الوفود. واستشهد بما أخرجه البخاري في باب غزوة الفتح عن عمرو بن سلمة: « (كانت العرب تلوّم ـ أي تنتظر ـ بإسلامهم الفتح فيقولون اتركوه وقومه، فإنه إن ظهر عليهم فهو نبي صادق. فلما كانت وقعة أهل الفتح بادر كل

---

(٦٣) ابن حجر، مرجع سابق، كتاب الجهاد ـ باب دعوة اليهود والنصارى (ج٦ ـ ص١٠٨).

(أي: مروية عن تابعين عن النبي ﷺ مع إسقاط الصحابة فهذه الروايات وإن صح سندها إلى التابعي يظل إرسالها علة لضعفها) لا بأس من الالتفات إليها؛ لأن ما تحدثنا به يُتوقع ممن مزق رسالة الرسول ﷺ بكل استهانة واستكبار، ففيها أن كسرى بعث إلى «باذان» عامله على اليمن يأمره بأن يبعث إلى هذا الرجل الذي بالحجاز «الذي يزعم بأنه نبي» فإما «أن يجلس في بيته أو ابعث إليّ برأسه». فقال رسول اللّه ﷺ لمبعوثي «باذان» «إن ربي قتل ربه في هذه الليلة». فلما استوثق من الخبر أسلم هو ومن

قوم بإسلامهم) الحديث. على أن ابتداء الوفود كان بعد رجوع النبي ﷺ من الجعرانة في أواخر سنة ثمان (سنة الفتح) وما بعدها»[٦٤]. وعلق على ذلك بقوله: «لعل ذلك من تصرف الرواة كما قدمته غير مرة»[٦٤] اهـ ابن حجر بتصرف ـ أي أن رواة الصحيح تصرفوا في تدوينه بتقديم وتأخير[*]. وتكرر الشيء نفسه عندما أخرج البخاري في باب قدوم الأشعريين حديث أبي موسى الأشعري:

(قدمت أنا وأخي من اليمن...) الحديث-مع ذكر بقية الوفود بعد باب حج أبي بكر عام تسع ـ كما تقدم ـ في حين أن البخاري أخرج في باب غزوة خيبر حديثًا صريحًا بأن أبا موسى قدم مع جعفر بن أبي طالب عند فتح خيبر. وعلل ابن حجر ذلك بقوله: «فإنما ذكره البخاري هنا ليجمع ما وقع على شرطه من البعوث والسرايا والوفود ولو تباينت تواريخهم»[٦٥] اهـ. وتجلّى ذلك التقديم والتأخير في تقديمه حجة الوداع على غزوة تبوك. فلا حُجَّة ـ إذن ـ لمن استدل بالترتيب الذِّكري على الترتيب الزمني.

وسواء تزامنت رسالة كسرى مع رسالة قيصر، أو تأخرت عنها، لمصلحة ارتآها رسول اللّه والذين معه، كأن يكونوا قد رأوا إرجاء مكاتبة الفرس، حتى يطمئنوا على ما سيحدث على الجبهة الرومانية، ولمّا تحقق لهم ذلك في تبوك، حيث صالح بعضَ أمراء نصارى العرب على الجزية ـ كملك أَيْلَة ـ توجه إلى الجبهة الفارسية، أقول سواءٌ كان هذا أم ذاك، فإن مسار البحث لن يتحول.

---

(٦٤) ابن حجر، فتح الباري، كتاب المغازي/ باب حج أبي بكر م٨/ص٨٣.

(*) الحق أن التفاتي إلى هذا الأمر جاء من خلال اطلاعي على معالجة د. أكرم العمري لهذا الملحظ في كتابه السيرة النبوية الصحيحة الجزء الثاني، ص (٤٥٥)، مستندًا إلى ما قاله ابن حجر، فآثرت الرجوع إلى المصدر للاقتباس منه بما يتناسب والبحث، وإعادة صياغته.

(٦٥) ابن حجر، مرجع سابق، كتاب المغازي ـ باب قدوم الأشعريين وأهل اليمن م٨/٩٧.

معه من الفرس». وهذا ما جاء في رواية ابن سعد عن عبداللّه بن حذافة السهمي رضي الله عنه (بغض النظر عن صحة السند).

والسؤال، الآن: كيف عالج رسول اللّه ﷺ والذين معه الأمر، على كلٍّ من جبهة الروم أو جبهة الفرس، في ضوء ما وصل من إشارات تبيّن موقف كل منهما من الدعوة الجديدة؟

وكما سبق توضيحه فإن الإشارات القادمة من الجبهتين، هي إشارات عدائية، ولكن هذا ليس كل شيء، فهناك تفاصيل لا بد من فهمها، حتى نتمكن من فهم حقيقة استجابة دولة الإسلام بقيادة الرسول ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ ـ لهذه الإشارات في المرحلة الأولى من صراعها مع الإمبراطوريتين.

فعلى الرغم من الانقسام الذي شهده البلاط القيصري بين هرقل وعظماء الروم حول الدعوة الجديدة المنبثقة من الجزيرة العربية، فإن هذا كما سبق توضيحه ـ ما كان ليؤثّر على الموقف العدائي للإمبراطورية الرومانية، وإنما ما أثّر عمليًّا في موقفها هو خروجها منهكةً عسكريًّا واقتصاديًّا من حروبها المتواصلة مع الفرس، على مدار ما يزيد على عقدٍ من الزمان. وأكبر دليل على ذلك أن كل حروب الروم مع المسلمين ـ وبالتحديد الحروب الأولى؛ لأنها موضوع البحث ـ كانت حروبًا دفاعية، لا هجومية. فأول مجابهة عسكرية بين الروم والمسلمين (غزوة مؤتة) كانت في الشام لا في الجزيرة العربية. فلم يقتحم الروم الجزيرة العربية، ولا حلفاؤها من نصارى العرب ولم يتقدموا خطوة واحدة في هذا الاتجاه. صحيح أنَّ هناك عوامل داخلية استنزفت الإمبراطورية الرومانية وكان أهمها الانقسامات والاضطرابات المذهبية، إلا أنَّ هذه الاضطرابات كانت سمةً للأوضاع الداخلية في الإمبراطورية الرومانية لا تكاد تنفك عنها، ومع ذلك لم تمنع من تجييش الجيوش ضد الفرس، حتى وصلت إلى جوهرة التاج الكسروي (المدائن). لكن فترة كافية لالتقاط الأنفاس واستعادة القدرة التعبوية لم تُمْهِلْهَا تلك الإمبراطورية المنهكة، فما أن نفضت عنها غبار معارك شرسة وعنيدة مع الفرس، إلا ودقّ أسماعها صوتٌ جديد، غير ما أَلِفَته من صَفير رياح الجنوب، وإذ

بتلال الرمال الزاحفة تنقلب جيوشًا متوثبة في وقتٍ كانت تزينت فيه لتحتفل بظفرها وغلبتها على عدوها القديم. وهذا المشهد سيتضح أكثر فأكثر إذا ما اقتربنا من وقائع الاشتباكات الأولى بين المسلمين والروم التي كانت في عهد رسول اللّه ﷺ.

وكان أول اشتباك بين المسلمين والروم في غزوة مؤتة، وقد انفرد الواقدي في رواية غير مسندة ـ بذكر السبب المباشر لها وهو: «أن شُرَحْبِيل بن عمرو الغَسَّاني، قَتَلَ صبرًا الحارث بن عُمَيْر الأَزْديّ الذي أرسله الرسول ﷺ إلى ملك بُصرى بكتابه، وكانت الرسل لا تُقْتل، فغضب رسول اللّه ﷺ وأرسل الجيش إلى مُؤْتة[٦٦]» كما أن هناك رواية غير مسندة (بلا إسناد) أوردها ابن هشام في سيرته عن ابن إسحاق مفادها: «أن جيش المسلمين عندما وصل إلى معان وصلته أخبار نزول هرقل بأرض مآب ـ وهي البلقاء ـ في مئة ألف من الروم ومئة ألف أخرى من نصارى العرب...، فأمضى المسلمون ليلتين يتشاورون في أمرهم. وبعضهم يرى مكاتبة الرسول ﷺ وإخباره بقوة العدو ليمدهم أو يأمرهم بأمره...[٦٧]» ورواية ابن هشام ـ هذه تماثل تَتِمَّة رواية الواقدي السابقة والتي بَدَأها بذكر سبب الغزوة، وكلتاهما غيرُ مُسْنَدتين، وبالتالي لا يمكن الاحتجاج بهما. إلا أنهما يتفقان مع روايات صحيحة[*] تحكي شراسة المعركة، وكيف قُتِل أمراؤها الثلاثة: زيد بن حارثة، ثم جعفر بن أبي طالب، ثم عبداللّه بن رواحة، وكيف كانت جراحهم، وكيف انقطعت السيوف في يد خالد بن الوليد.

ويستنتج مما سبق أن المسلمين واجهوا جيشًا لجبًا. إلا أن موضع المعركة، وهو مؤتة، في أرض الشام، بالقرب من البلقاء يدل على أن الروم قد فُوجئوا بتحرك المسلمين نحوهم، ولم يعلموا إلا بعد ما اقتربوا من الشام. ولا يخفى أن قتل الرسل هو إعلان صريح للحرب، كان يقتضي إتْباعه بتسيير جيشٍ إلى المدينة، على الأقل من نصارى العرب، وإن لم يأت المسلمين في عُقْرِ دارهم، يشتبك معهم في أي موضعٍ

(٦٦) أكرم العمري، مرجع سابق، ج٢/٤٦٧.

(٦٧) أكرم العمري، مرجع سابق، ج٢/٤٢٨.

(*) أخرجها البخاري في صحيحه. كتاب المغازي، باب غزوة مؤتة من أرض الشام.

على طول المسافة بين المدينة والشام. لكن ما حدث يؤكد أن هناك مُفاجأةً واستباقًا. وأما الجيش الذي لاقاه المسلمون أيًّا كان حجمه ـ بغض النظر عن العدد المذكور، فهو لا يستند إلى أساس ـ فلم يُعَدّ لِحَرْبٍ هُجومية، وإنما لِدَفْعِ طارئ ويدل على ذلك أمران، أولهما: عدم تتبع الروم لجيش المسلمين، بعد ما نجح خالد بن الوليد ـ حيث اجتمع المسلمون على تأميره بعد استشهاد الأمراء الثلاثة ـ في القيام بانسحاب منظم غطّاه بحيلة أَوْهَمت العدو بقدوم مدد للمسلمين. وأما ثانيهما فسيتضح في غزوة تبوك والتي وقعت بعد مؤتة بقُرابة العام، والذي مرّ دون أي محاولةٍ لاقتحام الجزيرة العربية على المسلمين، بل إن تبوك نفسها لم تشهد قتالًا على كِبَر حجم جيش المسلمين والذي فاق عشرة آلاف ـ كما قدَّرته رواية صحيحة عن كعب بن مالك في صحيح مسلم ـ حيث انتهى المسلمون إلى تبوك ولم يلقوا جموع الروم والقبائل المتنصرة، وآثر حكام المدن الصلح على الجزية.

« (وقد مكث الجيش عشرين ليلة)(*) في تبوك ثم عادوا إلى المدينة»(٦٨). وفيما عدا بعض الروايات الضعيفة السند التي تخبر بإرسال النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ خالد بن الوليد مع عدد من الصحابة إلى دَوْمَة الجَنْدَل، فأسر ملكها، وصالحه النَّبي ﷺ على الجزية، وفيما عدا هذا، فليس هناك ذكر لقتالٍ وقع بين المسلمين والروم، لا بطرق ضعيفة أو صحيحة. فليس هناك إلا روايات صحيحة(**) تذكر هدية ملك أَيلة التي أَرْسَلها إلى الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهو في تبوك، فصالحه على الجزية. وهذا يعني أن مَلك أَيلَة آثر الصلح من تلقاء نفسه، فبادر بإثبات حسن نيته، بإرسال الهدية. وروايات صحيحة أخرى تحكي رحلة الذهاب والإياب. فأين هي تلك الحشود التي «حشدها هرقل من الروم وقبائل العرب الموالية لهم»(٦٩)، والتي ذكرها ابن سعد في

(*) المصدر: (موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان ـ ١٤٥) بإسناد صححه أكرم العمري. أنظر هامش ص ٥٣٥ ـ ح٢ ـ السيرة النبوية الصحيحة.

(٦٨) أكرم العمري، مرجع سابق، ح٢/٥٣٥.

(**) أخرجها البخاري في كتاب الجزية، ومسلم في كتاب الفضائل.

(٦٩) ابن سعد، الطبقات الكبرى، م١/٤٦٢.

رواية بلا إسناد، على أنها سبب غزوة تبـوك. ثم يأتي العام الحادي عشر، وقبيل وفاته ـ عليه الصلاة والسلام ـ بدأ بتجهيز جيش إلى الشام (البلقاء) على وجه التحديد وأَمَّر عليه أسامة بن زيد، وله من العمر ثماني عشرة سنة. وحينما اشتد الوجع على رسول اللَّه أوصى بإنفاذه، فأنفذه أبو بكر حينما اُسْتُخْلِف. ويبدو من الروايات ـ وإن كانت غير مسندة، أو ضعيفة السند ـ أن هذا الجيش كان له مهمَّة خاطفة؛ فقد أورد الواقدي في مغازيه وابن سعد وابن إسحاق في سيرته أن رسول اللَّه ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال لأسامة: «سِر إلى موضع مقتل أبيك وأَوْطِئْهم الخيل... وأَسْرِع المَسير تَسْبِق الخبر، فإن أَظْفَرك اللَّه بهم فأَقِلّ اللبث فيهم»(٧٠). وهذا ما يؤيده اختيار أسامة على صغر سنه. فكان المقصود تأديب أهل مؤتة، وهي رسالة ـ أيضًا ـ إلى قبائل العرب الموالية للروم، ولم يحرك كل هذا ساكنًا عند الروم ولم يستفزهم للقيام بأي عمل هجومي شامل، على الرغم من انخراط الدولة الإسلامية في حروب المرتدين ومانعي الزكاة. حتى اُسْتُأْنِف القتال مع الروم في العام ١٣هـ، حيث بعث أبو بكر الجيوش تَتْرَى إلى الشام. وبالطبع لاقى المسلمون مقاومة عنيفة وشرسة في الشام، وفاقتها مقاومة الروم في مصر. والمقصود من كل هذا أن الروم فقدوا أي قدرة على المبادأة والمبادرة منذ أن تلقى هرقل رسالة رسول اللَّه ﷺ، حتى إنهم لم يستطيعوا استغلال فرصة حروب الردة.

وأما المشهد على الجبهة الفارسية، فقد كان يفضح ضعفًا وعجزًا وتفسخًا. فتمزيق كِسرى لرسالة رسول اللَّه ﷺ كان لا بد وأن يُتبع بفعل هجومي عسكري، على أي مستوى، فإن لم يفلح «باذان» عامله على اليمن يفلح غيره. ولكن ما حدث جعل تلك الإمبراطورية المثخنة بجراح الهزيمة النازفة، تدخل مرحلة الاحتضار. فقبل أن يطول كسرى رسول اللَّه ـ عليه الصلاة والسلام ـ بشر، قتله ابنه. ولم يستقر أمر الملك لأحد من بعد ذلك، وظلت الإمبراطورية الفارسية منهكة في همومها الداخلية، والتي أفقدتها أي قدرة على المبادأة، وإذا بالمُثَنّى بن حارثة الشَّيْباني ـ زعيم شَيْبَان التي

(٧٠) ابن حجر، فتح الباري، كتاب المغازي، باب بعث أسامة، م٨/ص١٥٢.

تسكن جنوبي العراق، ينتبه إلى حينونة اللحظة التاريخية للانقضاض في عهد أبي بكر، فأخذ يغزو بها الحيرة، بينما كان قُطْبَة بن قَتَادة السَّدُوسي - زعيم قبيلة سَدُوس - يغزو أطراف الأُبُلَّه الميناء الرئيسي للعراق على الخليج الفارسي وقتذاك. وإن كان كلاهما مستقلًّا في تحركه عن المدينة المنورة، إلا أن المدينة، ما أن تلقت إشارة البدء، إلا واستجابت لها، فبعث أبو بكر ﷺ خالد بن الوليد بجيش إلى العراق، وانضم إليه جيش المثنّى، لتبدأ بذلك فتوح العراق وفارس. ولتجد تلك الإمبراطورية التليدة نفسها في خندق الدفاع عن النفس كجارتها الرومانية، مع اختلاف جوهري، وهو أنها تدافع عن وجودها، بينما تدافع جارتها الرومانية عن نفوذها. وهذا الفارق، هو ما يفسر لماذا كانت فتوح المشرق أشد عنفًا وشراسة وضراوة من فتوح الشام ومصر. صحيح أن بعض القبائل العربية في جنوبي العراق ساندت الفرس، وكذلك الحال في الشام حيث كان نصف جيش الروم من نصارى العرب، إلا أن هؤلاء لا تربطهم إلا المصالح مع الإمبراطورية التي يتبعونها، وبزوال المصالح، يزول الولاء، ويتغير اتجاهه شطر الظافر. وصحيح أن المقهورين، دائمًا ما يتوقون لساعة الخلاص من قبضة القهر، كما حدث في مصر، إلا أن العصبية القومية قد تُثبِّط لَهْفة المظلوم للعدل - بعض الشيء - وهو ما حدث في بلاد إيران. «فسكان إيران فرس لا تربطهم بالعرب لغة ولا جنس ولا ثقافة وكان الشعور القومي عند الإيرانيين يذكيه التاريخ الطويل والثقافة المتأصلة، كما أن القتال كان يدور في صميم الوطن الإيراني، ويشترك رجال الدين المجوس في تأليب السكان على المقاومة...»[٧١](*). والسؤال الذي يطرح نفسه الآن:

---

(٧١) أكرم العمري، عصر الخلافة الراشدة، ص (٣٦٧).

(*) وهذا الذي ذكره أكرم العمري من عناصر إذكاء المقاومة الشرسة ضد الفاتحين، في إيران، إنما يثبت عبقرية الخلافة الراشدة في إجراء تلك الجراحة البالغة الدقة، بأنامل العدل المتلطفة للفصل بين شعب له قومية ذات تاريخ تليد، وبين إمبراطوريته الطاغوتية، والتي تكونت من نفس النسيج القومي؛ لتصبح الكيان المادي الممثل لطموح هذه القومية، والمدافع الشرعي عنها. حتى تمكنت من استدماج الفرس في نسيج الحضارة الإسلامية فخرج منهم أعلام في شتى ميادين العطاء الحضاري، فمهما بلغت العبقرية العسكرية الميدانية، فإنها لا تستطيع وحدها القيام بهذه المعجزة وإلا فكيف تلاشت الأندلس في حين صمد من لم يصلهم جيوش المسلمين في أقصى جنوب شرقي آسيا وهم محاطون بكتل وثنية؟!

ماذا لو كانت الإمبراطورية الفارسية المهددة في وجودها، بكامل عنفوانها، أو حتى ببعضه، أكانت ستظل مغلولة اليدين، حتى يدق المسلمون أبوابها؟! ومما لا شك فيه، أن الإجابة واضحة وضوح الشمس. ومما لا شك فيه أيضًا أن حقيقة المشهد المأساوي لإمبراطوريتين، استنزفت كل منهما الأخرى، كانت ماثلة في المدينة المنورة أمام رسول اللَّه ﷺ، والذين معه. وسيحاول البحث في السطور التالية أن يستشف قراءة دولة الإسلام في العهد النبوي (دولة الرسول) لقسمات هذا المشهد من خلال استيضاح موقفها منهما.

وأبرز ما يستلفت الانتباه ويسترعيه، هذا الإصرار على محاربة الروم، وذلك بتوجيه سَرِيَّة إليهم بقيادة ثلاثة أمراء، ثم بقيادة رسول اللَّه ـ عليه الصلاة والسلام ـ نفسه، لجيش قد يصل إلى ثلاثين ألفًا وصل إلى تبوك حيث القبائل العربية الموالية للروم، فيما يشبه استعراض القوة حتى تصل الرسالة لمن يعنيه الأمر. ثم سَرِيَّة أسامة بن زيد والتي أوصى بإنفاذها بعد موته، وإن كانت لمهمة تأديبية لأهل مؤتة. في حين أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ ترك الجبهة الفارسية دون أدنى تحريك. ولا يقولن أحد: إنه لم يشأ فتح جبهتين في آن واحد، ذلك أن المسلمين قد تحركوا على الجبهتين في وقت واحد برغم ما خلفته حروب الردة من خسائر مادية وبشرية، كما أن فتح مكة قد ضاعف من قدرة المسلمين التعبوية، وهو ما تَبدَّى في غزوة تبوك. ومع ذلك كان أمامه البديل بأن يفتح الجبهة الفارسية دون الرومانية. وما ذهب إليه ابن كثير في تعليله لقتال رسول اللَّه ـ عليه الصلاة والسلام ـ للروم بقوله: فعزم رسول اللَّه ﷺ على قتال الروم؛ لأنهم أقرب الناس إليه، وأَوْلَى الناس بالدعوة إلى الحق لقربهم إلى الإسلام وأهله اهـ[٧٢](*)، ليس مقنعًا فطالما أن الإسلام قد انفسح في أنحاء الجزيرة العربية، حتى إنه سقط تكليف الهجرة إلى رسول اللَّه ﷺ بعد فتح مكة، فإن شمالها الشرقي كشمالها الغربي. وبالنسبة لقوله: إن أهل الكتاب هم أَوْلَى بالدعوة، فهو قول لا

(٧٢) أكرم العمري ـ السيرة النبوية الصحيحة (ج٢/ من٥٢٢).

(*) فقد استشهد ابن كثير على هذا بقوله ـ تعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ ...الآية [التوبة:١٢٣].

ينهض على دليل أو سند فقد أُرْسِل رسول اللّه إلى الناس كافة. إلّا أن يكون أهل الكتاب أَوْلَى من غيرهم بالاستجابة لدعوة الإسلام فهذا أمر آخر، مَرَدُّه إليهم. وأما الدعوة، فالكل بالنسبة لها سواء، بعد إقرار عالميتها. والغريب في الأمر أن من اطْمَأنوا إلى هذا التفسير، هم أنفسهم من رفضوا فكرة التدرج في توسيع نطاق الدعوة. وإن كان هناك أَوْلَوية لأهلِ الكتاب على غيرهم، فتكون في المجادلة بالحسنى لا في المقاتلة، ففيها يستوون مع غيرهم. فكما شرعت سورة التوبة لدولة الإسلام الفتية مقاتلة أهل الكتاب بعامة شرعت مقاتلة المشركين كافة، وعند التطبيق جعلت الأولوية لمن يلي المؤمنين من الكفار.

وبعد كل هذا، مازالت علامات الاستفهام قائمة، فلماذا أَرْجَأ رسول اللّه ـ عليه الصلاة والسلام ـ الجبهة الفارسية إلى مرحلة لاحقة، على الرغم من عدائها السافر وضعفها المغـــري؟ يرى البحث أن هذا الضعف المغـــري هو نفسه ما صرف رسول اللّه ﷺ عن هذه الجبهة ـ إلى حين ـ حتى يصب قوته وتركيزه على الجبهة الرومانية. ذلك؛ لأن العطب في الإمبراطورية الفارسية قد بلغ الرأس. فالتمزق قد بلغ سدة الحكم وهذا يعني في ظل حكم فردي مطلق، فقدان القدرة على اتخاذ القرار، وليس فقط العجز عن تنفيذه. وبالتالي ستظل هذه الإمبراطورية غارقة في تمزقها ومنهكة من الصراع على الحكم. وهذا يتطلب مراقبة الأوضاع الداخلية لهذه الجبهة باستمرار؛ لأن ما فعله رسول اللّه ـ عليه الصلاة والسلام ـ لم يكن لأنه أَمِن شر وخطر هذه الجبهة، ولكن لأنه قَدَّر أن الجبهة الرومانية أَقْرَبُ خطرًا. فدائرة صنع القرار فيها مازالت قادرة وفاعلة، ولو أُمْهِلَت حتى تَتَعافى من جراح المعارك، وتُلَمْلِم شَعْثَها، لبادرت بالتحرك نحو الجنوب، ولوضعت المسلمين في خندق الدفاع عن النفس. ولذلك فإن أعظم مكاسب غزوة مؤتة، أنها أبعدت الصراع العسكري بين المسلمين والروم خارج الجزيرة العربية، ونقلته إلى أرض العدو، وهذا ما حرص رسول اللّه على تثبيته في غزوة تبوك، بتأمين التخوم الشمالية للجزيرة العربية واستقطاب ولاء القبائل العربية هناك، وحتى آخر لحظة تبدّي حرصه بتجهيزه جيش أسامة، ولو أراد أن يلفت

انتباه المسلمين إلى الجبهة الفارسية بأي تحرك لفعل، ولكنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ صبَّ تركيزه حتى اللحظة الأخيرة على الجبهة الرومانية.

إذن، كانت هناك لحظة تاريخية، على المدينة أن تقتنصها، وهي خروج القوتين العظميين في ذلك الوقت من تحاربهما مثخنتين بالجراح، لكن جراح إحداهما أبلغ وأغور، حتى أخمدتها، وأما الثانية، فعلى الرغم من أن جراحها قد أثبتتها، وبرغم أن قواها قد فَتَرت، لكنها أَقْدر على التعافي من الأولى، وحينها كان على المدينة أن تختار البدء بالإجهاز على الثانية، وأن تَسْبِق قبل أن تُسْبَق، طالما أن عداءها بات أمرًا واضحًا، لا ريب فيه، وأن الكلمة الفاصلة كانت لنوازع الملك والعصبية.

وهذا التحليل ـ كما يحسب البحث ـ هو الأكثر انسجامًا والتحامًا بمسار الأحداث التي انطلقت بها الدعوة الإسلامية إلى آفاق العالمية خارج نطاق الجزيرة العربية. ذلك لأن كلًّا من نظرية التدرج ونظرية الإطلاق تفترض نموذجًا مثاليًا قد يطابق الواقع في بعض الجوانب، ويفارقه في جوانب أخرى. إذ كيف نفهم توقيت مكاتبة الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ للملوك والأمراء في ظل العالمية المطلقة؟! وكيف نفهم توقيت غزوة مؤتة وموقعها وملابساتها في ظل نظرية التدرج؟! وما يطرحه البحث هو مسلك يضع في حسبانه الأمرين، فالعالمية المطلقة هي إطار حركة الدعوة بينما التدرج هو نهج التحرك في هذا الإطار العالمي. ولذلك فإن العالمية قد أُقِرت في الوحي المكي (الإطار) ومع ذلك لم يشرع الجهاد إلا بعد الهجرة (الوحي المدني) أي بعد انتقال الإسلام إلى مرحلة جديدة، وجد فيها أرضًا تُقِلُّه وسماء تُظِلُّه وأنصارا ينصرونه وينصرون نبيه وأتباعه. لكن الدعوة لا تُحلِّق في السماء، وإنما تسير على الأرض. ونحن ـ غالبًا ـ لا نُمْهَل حتى تَنْضُج أحوالنا وتبلغ غايَتَها، فكثيرًا ما تَدْهَمُنا مصائبُ وأخطارٌ تقطع علينا طريقنا الذي ارتسمناه، وكثيرًا ما تنبجس أمامنا فرص وسوانح. كما أن حرق المراحل، والتعجل دون تدبر قد يوقعنا في هذه المصائب قبل أن تقع هي علينا، وقد يسلبنا القدرة على الانتفاع بهذه الفرص، إنها معادلة صعبة، أن توازن بين قدرتك الذاتية المرحلية، وبين الظروف القائمة والطارئة الداخلية

والخارجية، لتستقرئ من كل هذا اللحظة النموذجية للتحرك، وفي أي اتجاه، وبأي كيفية. إنها المعادلة التي نجحت في تطبيقها الدولة الرسولية. لا لأنها قامت على معجزات السماء الخارقة كما قام ملك سليمان ـ عليه السلام ـ ولكن لأنها قامت بالعطاء البشري. ولولا أنها دولة بشرية لما احتاجت إلى تطبيق هذه المعادلة من الأساس.

وهنا تكون الدائرة قد اكتملت، ويكون البحث قد عاد إلى حيث بدأ ـ وهو أول سورة الروم ـ فبعد كل ما اجتمع لدينا من خيوط، يمكن للبحث الآن أن ينسج منها تفسيرًا قابلًا ـ كما يرى البحث ـ لأن يلتئم مع سائر النسيج القرآني، ويتجاوب ويتكامل مع ما سجلته السنة والسيرة النبوية الصحيحة في مجال الآيات الست الأولى من سورة الروم.

* * *